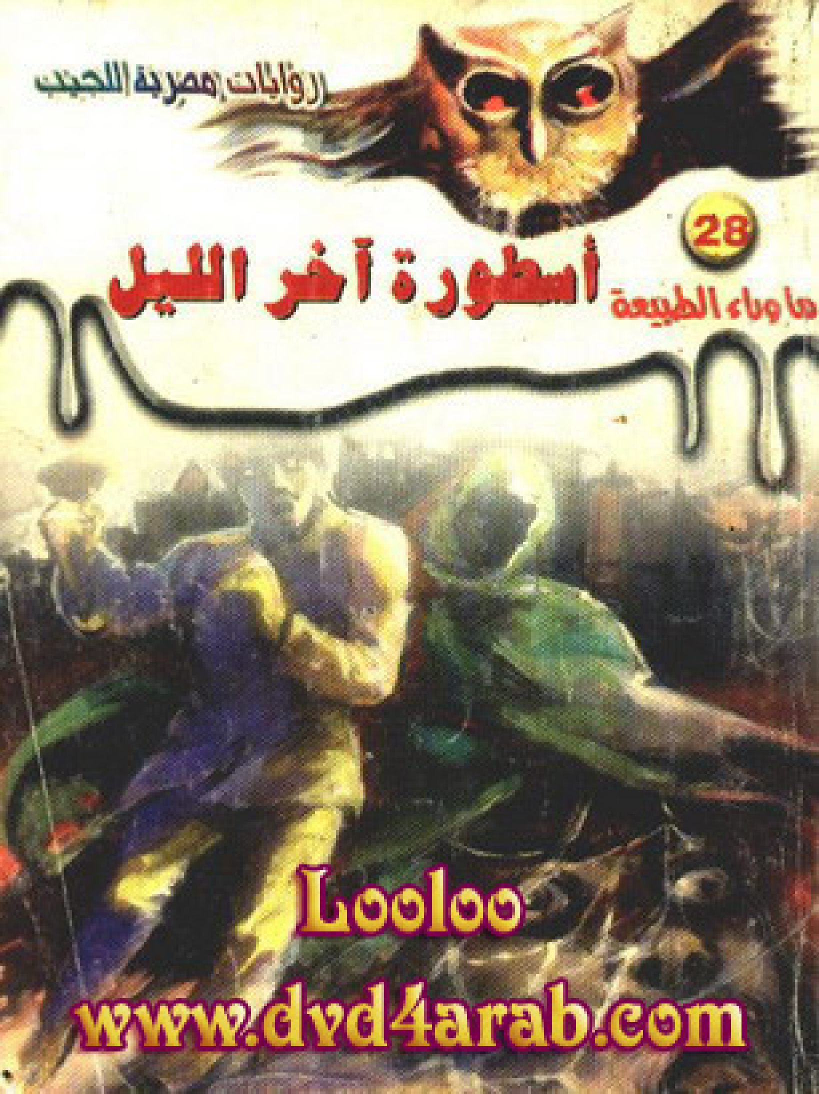

روايات مصرية للجيب
28
أسطورة آخر الليل
ما وراء الطبيعة
Looloo
www.dvd4arab.com

مقدمة

أنا د. (رفعت إسماعيل) .. سبق لى أن قدمت نفسى إليكم عدداً من المرات يقرب من الثلاثين مرة .. تصوروا هذا !

ليس الأمر ناجماً عن شكى فى ذاكرتكم ـ لا سمح الله ـ لكنه لذوى الوجوه الطازجة الذين يجلسون على مائدتى للمرة الأولى .. وعساها ألا تكون الأخيرة !

ماذا أحكى لكم اليوم ؟

سأضع أربع وريقات مطوية .. كتبت على إحداها (آخر الليل) وعلى الأخرى (المزيرة) .. وعلى ثالثة (فرانكنشتاين) .. وعلى رابعة (الدمية الشيطانية) ..

هى ذى الأوراق وقد خلطتها بعناية ..

أريد من أحدكم أن ينتقى ورقة منها .. لندع للحظ وحده أن يختار حكاية الليلة .. فكلها قصص متساوية فى الجودة والطول ..

هيا ! لا تتردد هكذا .. فلسنا بصدد الاختيار بين الحياة أو الموت .. إن هى إلا قصة أخرى قد

تنجح فى إمتاعكم أو تفشل .. بعدها تقول : « هذا العجوز طريف حقًا .. » .. ثم تعود لدارك ناسيًا الأمر برمته ، وتمارس حياتك المعتادة ..

هذه الورقة ؟ حسن .. دعنا نر ما بها .. آه ! (آخر الليل) .. لا بأس .. فهى قصة شائقة إلى حدٍ ما ، ولسوف تحبون سماعها ..

إنها قصة أخرى من سلسلة القصص التى لم يكن لى دور فيها سوى السرد .. وأعتقد أن هذه القصص ستستمر حتى العدد الثلاثين .. بعدها أعود إليكم .. لا تبتئسوا !.. إن (رفعت إسماعيل) هو قدركم الذى لا مفر منه ما دمتم أحياء وما دام حيًا ..

هلموا إذن إلى عالم آخر الليل ..

* * *

١ - خطاب جديد ..

هل تعرف هذا النوع من الأمسيات ؟

لا أحد يطالبك بشىء .. لا أعمال .. لا واجبات اجتماعية .. لا مواعيد .. لا ضمير يؤنبك على إضاعة الوقت فى كلام فارغ ..

تجلس فى الشرفة ترمق المدينة الناعسة التى أنهكها الكفاح ، وتحسو قدحًا من الشاى ، ومن المذياع ينبعث صوت (أم كلثوم) المفعم باللوعة يدغدغ كل آلامك (أعتقد أن أم كلثوم لا تُسمع إلا ليلاً .. وعلى محطة يشوبها بعض التشويش الاستاتيكى) ..

كان هذا هو العام ١٩٦٩ كما هى العادة ..

أمسية شتوية باردة ، وأنا الوحيد الذى يجلس فى الشرفة فى أمسيات الشتاء حيث ذلك المذاق الحزين للهواء المغسول ..

أحب أن أظل مختلفًا عن الآخرين ..

أحب ألا أكون (آخر) ..

وفى قلب هذا المناخ الفريد من نوعه ، أزمعت أن أقرأ خطابًا جديدًا من حشد الخطابات الذى انهال علىَّ من جهات الأرض الأربع .. وبمجرد أن بدأت أنال قسطًا من الشهرة ..

وهى شهرة لا تقدم لى مكسبًا ما .. لا تجعلنى ثريًا .. لا تمنع رجال المرور من خراب بيتى بالمخالفات .. ولا تمنع بائع الخضر من غِشّى .. ولا تمنع جارى الأستاذ (زكريا) من توبيخى ..

لكنها شهرة على كل حال .. ثم من قال لك : إننى أبغى شيئًا من أى نوع ؟

الخطاب الذى أنا بصدد الكلام عنه خطاب من مصر .. وكالعادة هو خطاب دسم أكثر من اللازم .. كُتب فى مائة صفحة (فلوسكاب) بخط جميل دقيق ..

وهذا يعنى - تعرفون رأيى - أنه خطاب من شخص يعرف كيف يتحكم فى نفسه .. شخص يجيد مداراة مشاعره .. ويمارس نوعًا من (البصاق الفكرى) ..

الناس فى كتاباتهم يمارسون (القىء الفكرى) أو (البصاق الفكرى) .. والنوع الأخير يمتاز بأنه إرادى .. ويمكن التحكم فيه ..

ولكن دعنا من كل البصاق والقىء والإسهال ، وتعال نطالع الخطاب معًا من البداية ..

وكما تعودنا سأتدخل فى لحظات بعينها لأعطى تفسيرًا ذكيًا لما يقال .. وسأعود لكم بعد انتهاء الخطاب لأكتب تعليقًا حكيمًا يفسد كل لذة كانت فى القصة ..

نقطة أخرى : كما هى عادتى مع الخطابات التى كتبها عرب لن أذكر أسماء أصلية مكتفيًا بالترميز .. اتفقنا ؟

القاهرة فى ١٦ نوفمبر ١٩٦٩

عزيزى د. رفعت :

سمعت عنك الكثير ، وسئمت هذه الصورة التى تحاول أن تبدو بها أمام الرأى العام .. لا أحب المدعين الذين يتظاهرون بالعلم والحكمة فى أمور لا يمكن لأحد أن يزعم إلمامه بها .. ماذا تعرف أنت عن عالم ما وراء الطبيعة حتى تنصب نفسك حكمًا على أموره كما تفعل فى هذا السخف الذى تقدمه تحت اسم (بعد منتصف الليل) ؟

لقد رأيت صورتك .. وأعتقد أنك أكثر ذكاء مما توحى به ملامحك ، لكنك أقل ذكاء مما توحى به كلماتك للأسف ..

إن كل إنسان يتضح ويعرف كيف يقول (فى الواقع) ؛ يحسب أنه صار حكيمًا يلجأ إليه الحائرون طالبى الرأى الصائب ..

سأضرب لك مثالاً على جهلك يا طبيبى المسكين ..

ماذا تعرف عن الجاثوم ؟

* * *

٢ - مجرد كابوس آخر ..

الجاثوم : (Incubus) روح شريرة يفترض أنها تنام فوق الأشخاص فى أثناء نومهم ، كابوس ، شخص يثير الرعب ككابوس .

[قاموس وبستر الشامل]

* * *

عزيزى د. (رفعت) ..

هذا هو ما تقوله المعاجم اللغوية عن الجاثوم ..

وعلى قدر علمى فإن الجاثوم هو جزء من معتقدات العقل الغربى ، فلا مجال له فى تراث المتحدثين بالعربية .. وإن كان يمكن فهم جذور هذا المعتقد بسهولة .. فالكابوس يجيئنا ونحن نيام - على ظهورنا غالبًا - بمعدة ممتلئة تضغط على الحجاب الحاجز ، وتشعرنا بالاختناق .. فنئن فى نومنا ، وتحتشد حبات العرق على جبيننا ..

ثم نصحو صارخين فنقول اللفظة الشهيرة :

ـ « شعرت كأن ثقلاً يجثم على صدرى .. »

وأمامى ـ وأنا أكتب هذه السطور ـ لوحة من القرن السابع عشر ، تمثل امرأة نائمة على ظهرها ، والألم على ملامحها .. بينما يجثم كائن شيطانى فى حجم القرد الصغير على صدرها .. وعيناه تشعان شرًا ..

اللوحة مرسومة بالحبر الأسود ولا ألوان فيها .. مما يعطيها كلها طابعًا مقبضًا كئيبًا .. ولا شك عندى فى أنها محاولة بارعة لتلخيص ما تعنيه لفظة (جاثوم) ..

إن الكوابيس مريعة ..

وأشنع ما فيها هو أننا نكون عاجزين فيها عن اتخاذ ردّ فعل صائب .. فلا سيطرة لنا إطلاقًا على شخوصنا فى الأحلام ، لكننا نحتفظ بخوفنا عليهم وقلقنا من أجلهم ..

* * *

الآن دعنا نقم بالتعارف الذى تأخر بعض الوقت ..

الاسم : (هـ) ..

السن : ثلاثون عامًا أو نيف وثلاثون ..

المهنة : مدرس رياضيات ..

الحالة الاجتماعية : متزوج لكنى لم أنجب بعد ..

سمات خاصة : لا شىء يميزنى . فليس فى وجهى قبح مميز ولا جمال مميز .. إن وجهى من تلك الوجوه التى هى غطاء للجمجمة لا أكثر .. كما إنك لا تستطيع تذكره أبدًا إذا لم أكن أمامك ..

لكنى ـ ولا فخر ـ أعتبر نفسى أذكى شخص عرفته .. ويضايقنى كل هذا الحشد من الأغبياء الذين علىّ التعامل معهم ؛ منذ أن أدير وجهى لمرآة الحلاقة فى الصباح .. وحتى أراها من جديد فى المساء حين أغسل أسنانى ..

إننى أعرف كل ما سيقال أمامى منذ أن يُذكر أول حرفين من الجملة .. وأتنبأ بنهاية النكتة قبل أن تنتهى .. وأعرف مصير كل علاقة ما إن تبدأ .. لهذا وجدت فى الرياضيات الحل الأمثل للسعادة .. ووجدت فى المعادلات سلام روحى السرمدى كما قالها (برتراند راسل) من قبل ..

العنوان : (........) ـ القاهرة .

والآن أنت تعرف عنى ما تعرفه أمى وزوجتى .. وما يعرفه خير صديق لى (إن كان هناك حقًا شىء كهذا) ..

يمكننى إذن أن أتحدث فى شأن قصتى ..

* * *

آخر الليل .. آخر الليل .. !

والنعاس شراك عنكبوت تتخبط فيها كذبابة غير راغبة فى الإفلات .. ودفء الفراش الجميل .. ربما صحوت شاعرًا بتلك الحاجة الحارقة تمزق مثانتك فتهرع - ثملاً مترنحًا - إلى الحمام .. ثم تعود إلى الفراش لتندسّ تحت الأغطية شاعرًا بأن الحلم لم ينته بعد ، ويمكن استكماله دون جهد ..

نظرة عابرة إلى أرقام المنبه الفوسفورية وسط السواد المتجانس المريح ؛ تخبرك أنها الرابعة صباحًا .. وصوت الـ (تك تك) الرتيب المطمئن يخبرك أن دورة الزمن مستمرة بثقة .. وأن حركة الأفلاك منتظمة .. وأن الغد قد جاء .. فلا تقلق .. لا تقلق !

وفى الحلم تقال أشياء وتحدث أشياء ..

هأنذا .. إننى أقف فى العراء وسط الرياح .. والقصر المهجور أمامى .. هذا المشهد يتكرر كثيرًا .. أم لعلها المرة الأولى ؟ فى الأحلام يغدو مستحيلاً أن تجزم بالحقيقة ..

شىء ما فى مشهد القصر يقول لى : ألا أدخل .. يقول لى : أن أفرّ كأنما الجحيم ورائى ..

لكنكَ تعرف ما يحدث فى الكوابيس .. لابد أن يحدث المحظور .. ولا قدرة لك بتاتًا على التحكم فى سلوك أبطال الكابوس ..

أفتح عينىّ لحظة لأرى ظلام الحجرة ، والحدود الخارجية لزوجتى النائمة تغط على بعد سنتيمترات .. أعرف أن هذا حلم .. لكن الصباح ما زال بعيدًا وأنا لن أصحو قبل الثامنة .. فلأستمتع إذن بهذه المغامرة مادمت سأصحو لأجد أننى فى الفراش الدافئ تحت الأغطية كما أنا ..

وأغمض عينىّ من جديد ..

أرقى درجات القصر وأزيح الباب الخشبى العملاق .. من المنطقى أن يحدث صريرًا لكنه لا يفعل ..

فى الداخل يكسو الغبار والعنكبوت كل شىء .. لكننى أتقدم فى إصرار ، وقد بدا علىّ كأننى أعرف ما أريد بالضبط ..

هناك حجرة .. حجرة فى نهاية الرواق الذى أمشى فيه .. كل شىء يقول لى ألا داعى لفتح بابها .. لكن

شخصى فى الحلم يتقدم .. يتقدم .. ثمة مفتاح فى الباب .. مفتاح غريب الشكل عملاق يمتلئ بتلك الزخارف التى تمثل الماضى .. الماضى الذى كان الناس يملكون فيه الوقت والبال الرائق لعمل هذه المنمنمات ..

أولج المفتاح فى القفل ، وأشعر بعناده وثقله .. لكنه يستجيب فى النهاية .. وينفتح الباب بصرير طويل هذه المرة ..

كان ينتظرنى بالداخل ..

من قرون طوال كان ها هنا .. ولم يضايقه أحد .. لكنى كنت الأول .. وبالتأكيد سأكون أول آدمىّ يراه منذ قرون .. لكنه سيكون آخر مخلوق أراه فى حياتى ..

كيف كان يبدو ؟ لا أذكر بالتأكيد .. فقد كان المناخ ضبابيًا غريبًا .. والأحلام تكتفى بالانطباع العام غالبًا دون ذكر تفاصيل ..

فقط كان غاضبًا وكنت أنا فى حالة يرثى لها من الهلع ..

ركضت نحو الباب .. آه ! هذا هو ما يتكرر فى الكوابيس دومًا .. إن قدمىّ تزنان أطنانًا ، وحركاتى

بطيئة غبية تثير استفزاز من يرى المشهد .. حتى الصراخ عسير يخرج واهنًا من حلقى لا يكاد يُسمع ..

بصعوبة عبرت الباب ، وأدرت المفتاح فى القفل ودسسته فى جيبى ، ثم رحت أركض ـ بالسرعة البطيئة ـ محاولاً الفرار من هذا المكان المشئوم ..

باب القصر .. لم تبق سوى بضعة أمتار و .. الشمعدان الفضى .. الستار الممزق .. لوحة جدارية مغبرة تظهر فارسًا يغرس رمحه فى صدر أسد .. العناكب و .. قلبى يكاد أن يتوقف .. الـ ..

لكن الشىء كان ينتظرنى .. ويقطع علىّ الطريق ..

كيف خرج من محبسه ؟ لا أفهم .. ربما كان هناك باب خلفى أو .. هل يوجد منطق للكوابيس ؟ إنه هنا وكفى ..

من المستحيل أن أفرّ منه بهذه الانعكاسات البطيئة ..

إذن أصرخ .. وفى هذه المرة نجحت الصرخة فى مغادرة حلقى ..

الغوووو ......

* * *

... وووووث !!



لكن الشيء كان ينتظرني . . ويقطع عليّ الطريق . .
كيف خرج من محبسه ؟

ثم هذا المشهد التقليدى : أنا أصحو من النـوم صارخـا .. وزوجتى تنهض مذعـورة تتسـاءل عمـا هنالك ..

وبعد ثوان أدرك أننى فى الفراش ، وألا وحـوش هنـالك تنـوى التهامى .. وأسمعها تبسمل .. وتهرع ـ فى الظلام ـ إلى المطبخ .. ثم تعود لى حاملـة كوبًا من الماء ..

ألهث وأمسح العرق عن جبينى .. وأفتح زرًا من أزرار منـامتى كى أتيح للسعة البرد أن توقظنـى .. وأغمغم بالعبارة الشهيرة :

ـ « كان كابوسًا مريعًا .. كأن أحدًا كان يجثم علـى صدرى .. »

ـ « اللهم اجعله خيرًا .. »

ـ « رأيت أن ... »

رفعت يـدها فى حـزم ـ كأيـة زوجـة مصرية بنت مصرية ـ تمنعنى من الاسترسـال ، قائلـة فى لهجـة لا تناقش :

ـ « صه ! لا تحكه وإلا تحقق .. »

فابتلعت ريقـى وتدثرت تحت الغطاء ، وجسدى كله

ما زال يرتجف من فعل الكابوس .. رائحة الغبار فى القصر ما زالت فى أنفى ، وملمس المفتاح البارد ونسيج العنكبوت على ذراعى ..

ـ « تصبح على خير .. »

ـ « هم م م م ! »

قلتها وعدت أذوب فى عالم الظلام ، حيث الفارق بين الموتى والأحياء هو ذبذبة فى رسم المخ الكهربائى .. إن النوم هو بروفة ممتعة للموت . موت يمكن العودة منه دون جهد .. وهذا هو ما يعطيه جاذبية كجاذبية مشاهدة أفلام الرعب ، أو ركوب القطار الأفعوانى فى مدينة الملاهى ..

لكنى لم أر القصر ثانية فى هذه الليلة ..

* * *

فى الثامنة صباحًا نهضت من النوم ، وقمت بالأعمال التقليدية التى تصاحب الاستيقاظ .. ثم شرعت أحلق ذقنى أمام المرآة .. إن المدرس يجب أن يكون حليق الوجه مهما كانت حالته النفسية .. قليل هم المحظوظون الذين يسمح لهم بترك ذقونهم غير حليقة حين يشعرون بإرهاق أو اكتئاب .

كنت أتفقد سمات وجهى .. وأستعيد الشعور بأننى لم أر قط كابوسًا أشد وضوحًا من هذا ، حتى ليوشك أن يكون رؤيا ..

فى غرفتى انتزعت الجزء العلوى من منامتى ، توطئة لارتداء ثياب الشارع .. حين سمعت صوتًا معدنيًا غريبًا ..

لقد سقط شىء من جيب السترة ..

انحنيت باحثًا عنه فوجدته ..

كان مفتاحًا معدنيًا مليئًا بالزخارف .. يعود إلى الماضى الذى كان الناس يملكون فيه الوقت والبال اللذين يسمحان بعمل هذه المنمنمات !

* * *

٢ ـ أسطورة آخر الليل ..

عزيزى (رفعت) :

لك أن تتصور ما دهانى من حيرة ، وما أصاب توازنى من خلل بعد هذا الاكتشاف المدهش ..

فى البدء استجوبت زوجتى واستجوبت ذاكرتى بشأن هذا المفتاح ، فكان الجواب اليقين هو أن أحدنا لم يره قط .. أنا رأيته فى مكان ما .. وأنت تعرف مثلى أين كان هذا المكان ..

لكننى لجأت إلى المنطق العلمى الصارم لأبرر الموقف : أنا نمت بهذا المفتاح الذى وجدته فى مكان ما .. وفى أثناء النوم تحسست أناملى جيبى .. فشعرت به .. وتكفل عقلى الباطن بإدماج هذا المؤثر الحسى فى الحلم .. كلنا مررنا بأحاسيس مماثلة من قبل .. ورنين جرس المنبه غالبًا ما يقتحم الحلم ليغدو رنين جرس باب أو شيئًا من هذا القبيل .. والمحير فى هذا أن الحلم قد يبدأ بالرنين .. ثم يكون طويلاً جدًا ..

ونصحو لندرك أن المنبه يرن .. فتصيبنا الحيرة .. إذن فهذا الحلم الذى حسبناه طويلا كالدهر لم يستغرق سوى عشر ثوان أو أقل(*) ..

المشكلة هنا هى أننى لا أعرف متى ولا كيف وضعت هذا المفتاح العجيب فى جيبى ..

لكن هذا التفسير مُحتم حتى لا أجن ..

* * *

فى المدرسة أيقن الجميع أننى لا أبدو على ما يرام .

إن المدرس لشبيه بممثل المسرح الذى يتوقع منه الجميع انفصالاً تامًا عن مشاعره الداخلية .. يجب أن يكون دومًا منتعشًا نشطًا مفعمًا بالبشر حتى لو كان نومه متقطعًا مفعمًا بالكوابيس ..

الحق أقول إن أدائى كان مخيبًا للأمل ..

وفى غرفة المدرسين وجدت مجلة طبية نسيها أحدهم ، وإن كان قد وضع خطوطًا حمراء تحت سطور مقالة تتحدث عن مشاكل الغازات وصعوبات التبرز .. وهذا يدلك على أنه رجل يفتقر إلى الشاعرية فى قراءاته ..

(*) يسمى (فرويد) هذا الضرب من الأحلام باسم (أحلام المنبه)

لكن ما أثار انتباهى هو مقالة فى ذات المجلة تتحدث عن علم صينى المنشأ هو علم (الأونيروماتسى)(*) ..

وهذا العلم ـ باختصار مخل ـ هو علم معرفة الأمراض الحادثة فى الجسم عن طريق الأحلام التى يراها صاحب هذا الجسم ..

وطبقًا لعلم (الأونيروماتسى) يمكن تحديد القوائم التالية :

- الأشباح والعفاريت والنار والدخان : تشير لمرض القلب .
- الحروب والجنود والبحار الهائجة : تشير لمرض الرئتين .
- الغرق واللعب فى الماء : تشير لأمراض الكلى .
- الحفلات والولائم : تشير لمرض الطحال .
- الغابات والجبال والمزارع : تشير لمرض الكبد .
- أحلام دموية : نزف المخ .
- شلالات : تشير للأنيميا (فقر الدم) .

أثار هذا شغفى .. يمكن بسهولة إثبات أن هذا

(*) Oneiromancy وهو علم حقيقى يعترف به الصينيون

العلم محض هراء .. لأننى أحلم بالولائم طيلة حياتى وما زال طحالى بخير حال .. لكن شوق المرء العارم إلى المجهول يجعله يقبل أن يقرأ سطورًا كهذه ، ويحاول تبين بعض الصواب فيها ..

طبقًا لهذا أنا أعانى مرضًا عضالاً فى القلب .. ألم أر شبحًا مريعًا فى حلمى ؟

فإذا تركنا الصينيين بعلومهم شديدة التعقيد وجدنا الأخ (فرويد) بتفسيراته القائمة على الغرائز المكبوتة ، والإمام (ابن سيرين) الذى يستلهم الدين فى تفسيراته ..

كلهم حاولوا .. لكن أحدًا لم يقدم تفسيرًا لوجود هذا المفتاح فى جيبى بعد انتهاء الكابوس ..

* * *

وحين عدت لدارى تناولت الغذاء الدسم المكون من الأرز والخضر واللحم المحلى بالدهن .. ، ثم أعلنت لزوجتى أننى داخل الفراش لأغفو قليلاً ..

ـ « لكن هذا غير صحى .. إن الإنجليز يقولون .. »

قلت لها فى ملل :

ـ « أعرف .. أعرف .. بعد العشاء نم قليلاً .. وبعد

الغداء امش ميلا .. لكن المرحومة أمى كانت تقول : اتغذى واتمدى .. وهى بالتأكيد تعرف ما يناسب ابنها خيرًا من الانجليز .. »

لكنى كنت أزمع أمرًا آخر ..

فنوم العصر بعد غداء دسم هو الطريقة المثلى للإصابة بالكوابيس .. وأنا كنت بحاجة إلى أن أعرف أكثر .. أن أخوض الكابوس من جديد أو أستكمله ..

لكن النتيجة سلبية : هأنذا أفيق من النوم وقد بدأ الغسق يغزو الحجرة ، ورائحة عطرية لا أدرى كنهها تفعم الهواء .. ربما هى رائحة مبيد حشرى رشته زوجتى لخنقى ..

لكنى لم أحلم بقصر الأمس .. ولم ألق ذلك المخلوق ..

وفى الخامسة عصرًا يبدأ توافد الطلبة الذين جاءوا للدرس الخصوصى .. نعم .. فأنا مدرس .. تقولى لى : إن هذه ظاهرة غير صحية وما إلى ذلك .. فأقول لك إننى بشر بحاجة إلى أن أنفق لأعيش .. وراتبى ينتهى بعد ثلاثة أيام من صرفه لى .. ثم إن هذا لم يجعلنى أقصر لحظة فى أداء واجبى فى المدرسة .. هؤلاء

الطلبة راغبون فى الاستزادة وأنا قادر على الزيادة .. فما هى المشكلة إذن ؟

حول المائدة الطويلة فى غرفة الطعام يجلسون ويتهامسون ..

ثم أدخل أنا مرتديًا الروب وتحت إبطى الكتب فيصمتون .. وأبدأ فى الكلام ..

تحليل القوة إلى مركبتين .. عجلة الجاذبية .. المسقط العمودى .. المنحنى التفاضلى .. لوغاريتم العدد (ع س) يرفع لأس ١٢ .

مع ضربات حاسمة سريعة على اللوح بقطعة من الطبشور .. هذا اللوح قمت بصنعه بنفسى وجعلت له حاملاً يسمح بنقله ..

أونيروماتسى .. والمراهقون يحلمون كثيرًا .. بالنسبة لهم ما زال للهواء رائحة .. وللعطور معنى .. ولليل قصة ..

الجذر التكعيبى للعدد (هـ) .. إثبات نظرية (فيثاغورس) .. لغة الأرقام لا تكذب ولا تقبل حلولاً وسيطة .. إنها الإحكام ذاته .. ليتهم يفهمون بوجوههم الحالمة ، وشواربهم نصف النامية ، وأصواتهم نصف الخشنة ..

ويمر الوقت ..

وجوه تتبدل .. وجوه ناعمة طويلة الشعر ترتدى الفساتين ..

ووجوه خشنة نصف حليقة ..

وتستمر المسرحية .. تستمر حتى العاشرة مساءً .. فأنا كما ترى يا د. (رفعت) إنسان مشغول وناجح فى عمله ..

فلا أملك الوقت مثلك كى أتساءل عن أسرار الطبيعة وما وراءها ..

وحين ينصرف آخر تلميذ من غرفة الدرس هذه ؛ أكون قد تحولت إلى نفاية عقل .. وتحشرج الصوت فى حلقى ..

أخرج إلى امرأتى لأجدها عاكفة على إعداد العشاء فى المطبخ ..

تقول لى وهى تهرس الفول بشوكة صغيرة :

ـ « نحن بحاجة إلى تغيير .. هذه الحياة المملة ذات الوتيرة الواحدة تقتلنا ببطء .. »

فأقول وأنا أخرج زجاجة الماء من الثلاجة لأجرع منها :

ـ « لا حيلة لنا .. هذا هو مصدر رزقنا الأساسى والوحيد .. وليس من حق العناكب أن تسأم البقاء فى بيوتها بانتظار الذباب .. »

ـ « أبقى وحيدة طيلة النهار والليل .. »

ـ « الوحدة خير من الفاقة .. وعلى كل حال أنا لا أتركك وحيدة كى أذهب إلى دور اللهو .. إننى لا أحب ما أقوم به كثيرًا .. »

تقول وهى تسكب الزيت على الفول :

ـ « أنا بحاجة إلى عمل .. إلى وظيفة .. »

ـ « أنت بحاجة إلى طفل .. »

فتهدأ قليلاً .. وتدفن وجهها فيما تقوم به ..

وهى حيلة لا بأس بها أمارسها معها كثيرًا .. التظاهر بأنها قد جرحت كبريائى .. فأنا لا أنجب .. وهى تعلم ذلك .. ولأنها رقيقة فإنها تتجنب أى تلميح إلى هذا الموضوع .. لهذا أجدها وسيلة فعالة فى أية مشاجرة أن أعلن لها أن مشكلتها هى الحاجة إلى الأمومة .. من ثم تغير الموضوع فورًا وتكف عن لجاجتها ..

لقد عرضت عليها الانفصال مرارًا لكنها بكرم

نفسى غير مفتعل تأبى ذلك .. وأنا أمقت أن يضحى أحد بعود ثقاب من أجلى .. لهذا لم تسعدنى تضحيتها هذه .. بل وجعلتنى غير كثير الميل إليها ..

إننا لا نحب لقاء دائنينا أربعًا وعشرين ساعة كل يوم .. وزوجتى دائنة .. دائنة من طراز خاص لا يمكن تحمله ..

* * *

تك .. تك تك .. تك .. تك تك !

هوذا حارس الزمن يمر على ممتلكاته .. يتأكد من أن الأفلاك تدور بانتظام وأن الغد قد بدأ .. وأن الوطاويط والبوم قد عادت إلى ديارها على حين تستعد العصافير والقطط للاستيقاظ ..

إنه آخر الليل ..

أشعر بهذا وأحسه .. وأعرف أننى نائم أحلم ..

هذه هى الأحلام المتجلية Lucid dreams كما يسمونها .. وهى الأحلام التى يعرف النائم فى أثنائها أنه يحلم .. وهى أرقى أنواع الأحلام وأكثرها قابلية للتفسير ..

الغووووث !

كنت أواصل الصراخ .. وأمامى ذلك الشىء الذى

لا أتبين ملامحه لكنى أخشاه كثيرًا .. وأدركت أنه ذات الموضع الذى انتهى عنده الحلم السابق .. أم ترانى أحلم للمرة الأولى وأتخيل أن هذا تكملة لحلم قديم ؟ لست واثقًا ..

لكنى أركض ..

أركض إلى أين ؟

لا يهم .. هناك رواق طويل إلى اليمين تكتسى جدرانه بالطحالب وله رائحة عفنة مقيتة .. على الحائط مشاعل بها لهب .. أحدهم أشعلها ولا أدرى من هو حقًا ..

أركض فى الممر غير متبين نهايته الغارقة فى الظلام .. وأنظر للوراء فأرى هذا الشىء عند طرف الممر قادمًا نحوى بتؤدة .. وباستمرار !

من الخطأ الفادح أن ينظر المرء للوراء حين يكون مطاردًا .. فهكذا يتعثر .. هكذا يتخبط .. هكذا ينتابه الهلع ..

لكن نهاية الممر غارقة فى الظلام أمامى ..

ماذا لو كان مسدودًا ؟

لا أدرى ما سيحدث وقتها .. رحت أئن .. وفيما

بعد قالت زوجتى إنها سمعت صوت أنينى وأنا نائم ..

ماذا لو كان مسدودًا ؟

أنا الآن فى الظلام الدامس .. لكننى أسمع صوت الشىء قادمًا .. إنه لا يزأر كأى وحش محترم .. بل هو يصدر هديرًا منتظمًا كهدير الثلاجة .. حتمًا هذا هو صوت الثلاجة فى مسمعى ، وقد وجد له عقلى الباطن مكانًا فى الكابوس .. تمامًا كما يفعل مع صوت المنبه والهاتف ..

كان هناك مشعل على الجدار الحجرى جوارِى .. مشعل يلفظ أنفاسه الأخيرة لسبب مجهول .. فوثبت لأنزعه من مكانه .. ورفعته عاليًا فتأجج اللهب واضطرم ..

وعلى الضوء الخافت الذهبى المحيط به أدركت أننى كنت على حق ..

إن الممر مسدود حقًّا !

* * *



وعلى الضوء الخافت الذهبى المحيط به أدركت أننى كنت على حق .. إن الممر مسدود حقًّا !

٤ ـ الطبيب وعرين الموتى ..

وقفت وظهرى للحائط ورفعت المشعل عاليًا ..

كان بوسعى أن أرى الشىء وهو يدنو منى .. بتؤدة وثقة .. لم لا وأنا الآن فأر فى مصيدة ؟

لم يكن أمامى سوى القتال بالشعلة .. صوبتها إلى ما أعتقد أنه وجهه ، وأطلقت صرخة عالية .. ولكن .. ألم تكن تلك صرخة حمل يلمس نصل السكين عنقه ؟

لا ا ا ا ا ا ...

* * *

.. آ ا ا ا ا ا ه !

وثبت من فوق وسادتى أكافح من أجل الهواء .. وكالعادة كانت زوجتى جاهزة بالأدعية وعبارات التهدئة .. كفها البارد على جبينى يعيدنى إلى الواقع ويمنحنى شعورًا بالسكينة ..

ـ « كابوس آخر ! يجب ألا تتناول فى العشاء سوى الزبادى »

لكننى كنت عاجزًا عن الكلام ..

لو تكلمت لقلت لها إنها حمقاء ككل البشر ذوى القياس الخاطئ .. لو كان للطعام دور فى هذه الكوابيس لزارتنى بعد الغداء الذى تعمدت أن يكون دسمًا .. إذن ـ بهذه التجربة البسيطة ـ يمكن القول : إن الكابوس لا علاقة له بما آكل ولا بوضع نومى ..

هذا الكابوس له علاقة بآخر الليل ..

كادت تنهض لتحضر لى كوب الماء الأبدى ، لكنى أبقيتها فى الفراش بإشارة من يدى ونهضت لأحضره لنفسى ..

تألق مصباح المطبخ (النيون) المتقطع يحدث فى ذهنى ما يحدثه الضوء المماثل لمرضى الصرع .. وأسترجع تفاصيل الكابوس الذى ما زال ساخنًا متوهجًا ..

عدت إلى الفراش وأنا أسمع أصداء قرآن الفجر تتردد من مسجد بعيد .. ورجل يمشى فى الشارع يتحدث بصوت عال إلى آخر .. كأنما ليس فى الكون سواهما ..

هنا وجدت زوجتى قد أضاءت الأباجورة .. وكانت

جالسة فوق الفراش على ركبتيها تتفحص شيئًا ما ..

سألتها وأنا لم أسترد وعيى بعد ، كأن نسيج عنكبوت يغلف ذهنى :

ـ « ماذا هنالك ؟ لا أظن أننى فعلتها ! »

قالت وهى ترفع الشىء الذى كانت تتفحصه :

ـ « ما هذا ؟ لقد أتلف الملاءة تمامًا .. »

ونظرت إلى يدها .. كان هذا ـ لمن يجهل الأمر ـ أقرب إلى مقبض خشبى اسودّ طرفه .. لكنه بالنسبة لى كان مألوفًا تمامًا ..

كان هذا مشعلاً منطفئًا ، وقد لوث الملاءة بالسناج إلى حدّ مروع !

* * *

ـ « (ع) .. أنا خائف .. »

كنت نائمًا على ظهرى فى الفراش أرمق ستار الظلام المعلق فى الهواء .. وأرتجف .. ومن عينىّ سالت عبرتان لم أستطع منعهما ..

قالت فى رفق وهى ترمق الظلام جوارى :

ـ « هذا غريب .. لكنه لا يعنى شيئًا .. »

ـ « إن ما أجهله يثير رعبى حتى لو كان غير خطر .. »

وحكيت لها فى الظلام بصوت آثار شجنى شخصيًا ؛ كيف أننى فى صباى وجدت حشرة مسالمة لا خطر منها ، لكنى كنت أجهلها وبدت لى غريبة جدًا .. حتى إننى ملأت الكون صراخًا وعويلاً ..

قالت لى بذات الحنان :

ـ « أنت رجل علمى واسع الذكاء .. وستجد لهذا كله تفسيرًا .. »

كان حنانها قد بدأ يؤثر فىّ حقًا .. إننا دومًا أطفالهن .. خرجنا من أرحامهن .. وهن وحدهن يعرفن كيف يزلن خوفنا من الظلام .. إننا أقوى منهن وأشجع منهن لكنهن يعرفن كيف يحميننا ..

قلت لها وأنا أتنهد وأغلق عينى :

ـ « غدًا سأذهب لأرى طبيبًا نفسيًا .. »

* * *

عيادته فى شارع (شريف) ..

لابد أنك تعرفه .. دكتور (م. ن) الأستاذ فى ذات الكلية التى تعمل أنت فيها يا د. (رفعت) .. لكن لا تحاول سؤاله عنى لأنه رجل يحترم مهنته ولا يفشى أسرار مرضاه أبدًا ..

جلست وزوجتى فى العيادة الخاوية متوترين ..
ورحت أشعل لفافة تبغ تلو الأخرى .. أنا أثق بالطبيب النفسى الذى خلت عيادته من المرضى .. فهو رجل سيعطينى ما أريد من وقت .. رجل يملك الوقت الكافى للقراءة والتأمل واكتساب الحكمة ..

نظرت فى ساعتى .. ما زال الوقت كافيًا للكشف ، فالعودة إلى الدار ونيل قسط من الراحة قبل ميعاد الدرس الخصوصى ..

وابتسمت حين لمحت الذعر على وجه زوجتى .. إنها تحسب عيادة الطبيب النفسى ملأى بجرائم الجنون .. وتتوقع ـ فى أية لحظة ـ أن يقتحم المكان مخبول يلوح بسكين وهو لا يرتدى سروالاً ..

دعانا الممرض العجوز المتثاقل إلى الدخول .. فنهضنا لنلقى الكاهن الأعظم فى محرابه ..

كان شيخًا فانيًا ـ كما تعرف عنه ـ لكن له عينى صقر .. وهو يكتفى بتأملك من فوق الإطار العلوى لنظارته ، ولا تقول شيئًا تقريبًا .. سوى عبارات من طراز (خيرًا ؟ ثم ماذا ؟ وبعد ؟)

ويخط عبارات فى دفتر صغير أمامه ..

حكيت له قصتى بعبارات مختصرة ملول .. بينما عينا امرأتى المرعوبتان ترمقان كل لفظة تخرج من فمى .. يبدو أن كلماتى تخرج فى بالونات كما يحدث فى قصص الأطفال الهزلية ..

أخيرًا جاء دوره ليسألنى :

ـ « هل من عادتك أن تمشى فى أثناء النوم ؟ »

مشى فى أثناء النوم ؟ لم يخطر لى هذا قط .. الحق أن هذا حدث مرارًا .. لكنى بهذا أقدم له الحلّ النهائى للمشكلة .. ومن العسير أن يتخلى هو عن هذا التفسير الذى ألقى له كطوق نجاة .. قلت فى كياسة :

ـ « الواقع أن ... » :

ـ « نعم أم لا ؟ »

ـ « نعم .. لكنها ليست عادة .. أعنى .. مرة أو مرتين ذهبت إلى المطبخ .. وجدتنى زوجتى هنالك أفعل أشياء ما .. لكنى لا أذكر عنها حرفًا فى الصباح .. »

فى انتصار أضافت زوجتى :

ـ « ومرة فتح جهاز التلفزيون وراح بعينين لا تريان يراقب الشاشة الخاوية بعد انتهاء الإرسال .. »

بدأ الاهتمام فى عينى الصقر .. وتساءل :

ـ « ومنذ متى بدأ هذا ؟ »

ـ « منذ أن عرف أن ... »

وصمتت بعد ما أدركت أنها تكلمت كثيرًا .. فسألها كمحقق بارع لا يترك خيطًا أمسكه :

ـ « عرف ماذا ؟ »

أطرقت بوجهها غير راغبة في مواصلة الكلام ، فبادرت أنا بالإجابة عن سؤاله قائلا في تحدٍ وقح :

ـ « منذ أن عرفتَ أنني لا أنجب .. »

ـ « آه ه ه ه ! »

والتمعت نظرة فرويدية نهمة في عينيه .. فقلت أنا محاولاً أن أمنعه من الاسترسال في الاستقراء :

ـ « أعرف ما ستقول .. ستقول إن عقلي الباطن يحاول الخروج من الكبت الذي يسببه إحساسي بالنقص .. لهذا أمشي في أثناء النوم وأضع أشياء في الفراش .. إن المفتاح والمشعل لرمزان فرويديان قويان .. لكن دعني أؤكد لك أن الأمر ليس كما تحسبه .. أنا لم أمش في أثناء نومي .. وزوجتي تدرك ذلك .. »

قال وعينا الصقر لا تبارحان وجهي :

ـ « أنت مثقف يا سيدي .. ومشكلة المثقفين هي أنهم لا يمنحون ثقتهم للطبيب النفسي .. إنهم يحسبون أنهم يعلمون قواعد اللعبة جيدًا .. وهذا سيؤثر دون شك على فعالية العلاج .. إن القاعدة الأولى في أي علاج هو أن يهاب المريض طبيبه بعض الشيء .. وهذا لن يكون الحال معك .. خاصة وأنت تبدي نوعًا ما من العدائية نحوي .. برغم أنك صاحب فكرة المجيء هنا على ما ، أظن ولم تكن (المدام) هي صاحبتها ؟ »

قلت في كياسة :

ـ « هذا حق .. لكني كنت دائمًا أعادي طبيب العيون وطبيب الأسنان .. وأعاملهما كخصمين يحاولان هدمي .. »

وضع راحتيه على المكتب ، وتنهد في ارتياح ، ومال إلى الأمام قائلا :

ـ « حسن .. الآن نحن نفهم بعضنا خير فهم .. فلنتكلم بصراحة إذن : ما هو دليلك على أنك لا تمشي في أثناء النوم ؟ »

ـ « وما هو دليلك على أنني أمشي ؟ »

ـ « لأن هذا هو ناموس الكون .. الأشياء لا تغادر الأحلام لتظهر فى فراشنا .. كما أن الأفيال لا تطير والدم لا يتحول إلى ماء .. »

نظرت له فى حيرة .. وعجزت عن إضافة كلمة أخرى ..

* * *

قمنا بتجربة عملية كما نصحنا د. (م. ن) ..

فى هذا المساء قامت زوجتى بتغيير ملاءة الفراش وغطائها .. وتأكدت من عدم وجود أية أجسام غريبة هنالك .. قامت كذلك بتفتيش جيوب منامتى للتأكد من أننى لا أضع شيئًا فيها ..

وخضعت أنا فى إذعان لهذا التفتيش المهين ، فقد كنت أريد أن أعرف حقيقة ما يحدث لذاتى ..

أما الإجراء الأكثر أهمية فهو أنها جلبت مقعدين ثقيلين وضعتهما إلى جانب الفراش ؛ ليعوقا حركتى قدر الإمكان لو أننى نهضت ليلاً ..

أعرف أننى لن أنام .. الترقب سيبقينى يقظًا .. لهذا ابتلعت قرصين من (الفاليوم) لأنام برغم أنفى ..

يمكننى أن أجبرها على البقاء متيقظة لتراقبنى .. لكنك تعرف آخر الليل .. حين يتسلل النعاس إلى أقوى الجفون لينهكها ويجعلها تزن أطنانًا ..

وهكذا حين أطفأت ضوء الأباجورة ؛ كنت قد بدأت أحلم وعيناى مفتوحتان .. إرهاق اليوم مع فعل المهدئ ..

كل هذا له أ .. كـ .. بـ .. ر .. أ .. ل ..

* * *

لااااااآاه .. !

ودفنت المشعل فى وجه الشىء .. لكنه لم يصرخ .. المريع أنه لم يصرخ .. فقط سمعت صوت الاحتراق الشبيه بـ .. بماذا ؟

لا وقت للبحث عن تشبيه بليغ .. فلأهرب ..

ولكن لأين ؟

ثمة كوة صغيرة مستديرة جوارى .. كيف لم أرها من قبل ؟ إلام تقودنى يا ترى ؟ لا يهم .. إنها ستبعدنى عن هذا الشىء وكفى ..

وفى ثوان كنت قد حشرت نفسى فيها وعبرتها ..

لم تكن هناك هاوية كما توقعت .. بل كان هناك

منحدر وعر يوشك أن يصير قائم الزاوية مع الأرض ..

وهكذا ـ تعرف هذا الشعور ـ راحت قدماى تركضان على غير إرادة منى ، وبسرعة لا تصدق نحو قاع المنحدر .. لكنى ظللت أقف عليهما ..

ولمحت عينى مشاعل غريبة الشكل على جدران المكان .. مشاعل هى جماجم آدمية وضعت شموع فى محاجرها ..

ما هذا المكان ؟

كنت قد استقررت على قدمىّ ، واستطعت أخيرًا أن أعرف أين أنا .. كنت فى قاع المنحدر .. فى قاعة تشبه المحراب .. وكانت هناك عظام آدمية متناثرة هنا وهناك ..

وبدأت أفهم أين أنا من بعض السمات الواضحة ..

إن هذا هو وكر (نكرومانسر) .. (نكرومانسى) محترف(*) .. أنا أعرف هذه الأمور من قراءاتى .. ولكن فى أى عصر عاش هذا الشيطان ؟ هل الوحش

(*) النكرومانسى : ضرب من السحر الأسود قائم على استجواب جثث الموتى ، والنكرومانسر هو من يمارس هذ العمل الشنيع ..

الذى هاجمنى فى الطابق العلوى هو (البودى جارد) الخاص به ؟

ولم تطل أسئلتى للأسف .. وليتها طالت ..

كان (النكرومانسر) واقفًا ـ كسحرة القصص القديمة ـ أمام مرجل يتصاعد منه البخار ، وقد ارتدى عباءة تنسدل على وجهه فلم أتبين ملامحه جيدًا ، وقد سرنى هذا ..

سمعت صوته البارد الرهيب يقول لى :

ـ « هلم ادنُ منى .. »

وكأننى تحت تأثير التنويم المغنطيسى دنوت منه فى حذر ..

قال وهو يقلب ما فى المرجل بعصا خشبية :

ـ « أنت قد دنوت من النار أكثر من اللازم .. ولسوف ينالك من أذاها ما لا ترغب .. »

خطر لى هنا ما قاله علماء النفس عن أن الأحلام الملونة تدل على اضطراب نفسى .. أنا أعيش حلمًا ملونًا رائع التلوين .. وبالتالى هذا دليل أكيد على اضطرابى النفسى ..

قال (النكرومانسر) وهو يشير إلى ما وراء ظهرى :



وكأنني تحت تأثير التنويم المغنطيسى دنوت منه فى حذر ..

ـ « لهذا سلطت عليك (الجاثوم) .. (الجاثوم) القادم من كوابيس الموتى ليجعل ليلك جحيمًا ونهارك رعبًا .. »

وهنا نظرت إلى الوراء لأرى ذلك الشىء الذى طاردنى فى الكوابيس كلها .. وهو يتقدم منى ببطء شديد واثق ..

قال الرجل وهو يواصل تقليب ما فى المرجل :

ـ « إن موعدك معه هو آخر الليل .. آخر الليل حين تحين ساعة الذئب .. عندها ستتمنى لو لم تكن حيًا .. »

تراجعت إلى الوراء وأنا

(ما الذى يغلى فى هذا المرجل ؟!)

ـ أتحسب لموضع قدمى .. الكائن أمامى الآن وصاحبه خلفى .. وأنا لا أطيق مجرد لمس أحدهما .. إن ما سأقوم به الآن هو عمل أخرق لكنه ـ

(رباه !.. ألن أصحو من هذا الكابوس ؟)

ـ ضرورى حتمًا ..

وبركلة واحدة ضربت المرجل فانقلب على الرجل الواقف خلفه ..

هذه المرة لم تكن تلك صرختى ..

* * *

٥ ـ أعصابى ..!

لقد صرخ الرجل ودارى عينيه بكفيه ..

وكنت من اللحظة الأولى أرتجف هلعًا من نتيجة ما فعلت .. ولسوف يكون انتقامه رهيبًا لو ظل حيًا ..

انحنيت إلى الأرض فالتقطت عظمة آدمية كانت هناك .. وبأعنف وأعتى ما بوسعى هويت على رأسه ..

هل كان هذا هو صوت تهشم العظام أم تهشم جمجمته ؟

لكننى ـ قبل أن أتبين الأمر ـ شعرت بيدى المسخ الذى عرفت أنه يدعى الجاثوم .. شعرت بها تلتف حول عنقى ..

فى هذه المرة لن يكون الفرار ممكنًا ..

النجدا!!!!! ..

* * *

آ!!!!ه !

وكان المشهد مختصرًا فى هذه المرة ..

زوجتى أضاءت الأباجورة .. ولم تبادر بتهدئتى أو

تقل شيئًا .. فقط جلست فى الفراش ترمقنى بعينين متسائلتين تقولان : هل حدث هذه الليلة أيضًا ؟

لم أرد ، ورحت أعبَّ الهواء بجرعات كبيرة .. ثم مددت يدى تحت الملاءة وأخرجت عظمة آدمية .. عظمة ساعد بدا عليها القدم .. وقد شرخت فى منتصفها !

كان هذا هو الجواب الذى أردته ..

* * *

استيقظت فى الصباح مشوشًا مختلط التفكير ..

وقد تكفل المهدئ الذى تناولته بزيادة الأمر سوءًا ..

تأملت وجهى فى المرآة فوجدت عينين حمراوين أسفل كل منهما انتفاخ شبيه بقربة السقاء .. انتفاخ كالذى تدارى فيه أنثى الكانجارو أطفالها ..

ـ « ثدييات كيسية ! »

قلتها بصوت مسموع .. ورحت أضحك وقد راقت لى المزحة .. ها ها ! وظلت زوجتى ترمق ضحكى بعينين خرساوين ..

قلت لها وأنا أرتدى ثيابى :

ـ « احتفظى بالعظمة مع المفتاح والمشعل .. بعد

شهر واحد سيكون عندك معرض كامل .. ومن يدرى ؟ ربما جلبتُ لك السيارة التى تحلمين بها من كابوس مماثل ! »

وأرحت رأسى على خزانة الثياب لثانية واحدة .. ثم فتحت عينى فوجدت زوجتى تنادينى فى إلحاح ، وقد عادت من الحمام تجفف وجهها بمنشفة :

ـ « هل نمت وأنت واقف ؟ إن ربع ساعة قد مضى عليك فى هذا الوضع ! »

ـ « حقا ؟ لم أغب سوى ثانية .. »

لكن الساعة قالت لى إنها صادقة .. وهكذا وجدت الحل الوحيد المتاح لى ألا وهو أن أنزع ثيابى وأعود للفراش .. وأستسلم لقبضة (الفاليوم) ..

ـ « لكن .. المدرسة ؟ »

ـ « إجازة عارضة ..... همممممم ! »

وكان نوماً هادئاً بلا (جاثوم) صحوت منه على صوت أذان الظهر من المسجد المجاور للبيت ..

* * *

تكررت مواجهاتى فى آخر الليل مع الجاثوم ..

دائماً أنا فى ذلك القصر المرعب أفرّ بين حجراته ،

بينما ذلك الشىء المقيت يطاردنى ، ولا يضل طريقه أبداً معلناً عن وعى (طبوغرافى) مدهش .. وكان دوماً هناك فى أسوإ لحظة ممكنة ليسدّ علىّ الطريق ، بينما أنا أتحرك هذه الحركة البطيئة المتثاقلة المميزة للكوابيس .. وينتهى الكابوس بصرخة مريعة ..

ولم يكن العثور على شىء من الحلم فى فراشى أمراً محتوماً .. ففى مرات عديدة صحوت من النوم لأجد ألا شىء هنالك .. وهذا يوحى بواقعية ما يحدث فالحياة بطبعها غير منتظمة ولا تحترم عاداتها .. ولو كان عثورى على شىء من مخلفات الحلم أمراً معتاداً ؛ لبدا لى هذا غريباً مريباً ..

لن أقول هنا إننى تبدلت فى الأيام الأخيرة ..

أنا بطبعى عصبى نافد الصبر أشعر أن الحياة أبطأ من اللازم .. والناس أكثر غباء من اللازم ..

لكننى فى الأيام الأخيرة صرت قنبلة زمنية سريعة الانفجار .. وصرت أتشاجر لأتفه سبب .. وقمت بعقاب الطلاب فى المدرسة مراراً على أخطاء أقول ـ بكل أمانة ـ إنها هينة ..

وفى المنزل لم أعد أطيق هذه المخلوقة التى

لا تملك سوى التضحية من أجلى .. وبدت لى كئيبة ومملة إلى حدّ لا يوصف ..

كنت أخشى الليل إذا دنا وأحاول اجتنابه ، لكنى أمارس مهنة لا ترحم .. والنوم ليلاً جزء أساسى من عملى .. فهناك المدرسة صباحًا والدروس الخصوصية ظهرًا .. فمتى أنام إذن إن لم يكن ليلاً ؟

لكنى فعلتها ..

جربت السهر عدة ليال متواصلة ، وللسهر طرق عديدة أبسطها القراءة وضبط المنبه ليوقظك فى الثالثة صباحًا .. وقد تتعقد أساليب السهر إلى درجة الخروج بعد منتصف الليل .. والجلوس فى أحد مقاهى (الحسين) التى لا تنام .. واحتساء جالونات من القهوة ..

ماذا يبقى من جهازك العصبى بعد كل هذا ؟

كنت أخشى تكرار التجربة .. فهى كريهة بكل مقاييسها ، ثم إننى أصحو من النوم شاعرًا بإنهاك عضلى عصبى كأننى كنت أصارع هذا الجاثوم حقًا لا خيالاً ..

ولقد لفتت زوجتى نظرى مرارًا إلى كدمات فى أكثر

من موضع من جسدى عند الاستيقاظ ، وهو ما يسميه العامة (ضربات ملائكة) كأن الملائكة تكيل لك الضربات فى أثناء نومك ؛ فكنت أردّ عليها بأن هذا ليس من شأنها وأنها تخرف ..

الخلاصة أن أخلاقى صارت - واسمحوا لى بالتعبير - (زىّ الزفت) ..

وفى المرآة بدا لى وجهى كوجه خريج سجون ومسجل خطر .. أو كوجه شيطان زنيم قادم حالاً من سقر ليملأ الأرض جورًا ..

رباه ! كانت أيامًا شديدة الوطء ..

ثم بلغ الأمر ذروته أو - كما يقول أجدادنا العرب - بلغ السيل الزُبى فى تلك الليلة ..

ليلة من ليالى شهر مارس هى ..

* * *

كنت جالسًا فى واحد من المقاهى التى لا تنام ، أرشف قدحًا رابعًا من القهوة ، وأطالع جريدة الغد .. أعنى جريدة اليوم فنحن فى الرابعة والنصف صباحًا ، وكان المقهى شبه خاو فيما عدا حشدًا من الشباب التف حول مائدة يتابع مباراة (نرد) حامية بين اثنين منهما ..

عناوين الجريدة تتحدث عن (عبد الناصر) فى الجبهة ، ومناورات حرب الاستنزاف ، ومشكلات (جونسون) الرئيس الأمريكى فى فيتنام ..

وهنا أعتقد أننى غفوت ثانية أو أكثر ..

لم أسترخ ولم أستلق .. بل هو شىء شبيه بغيبوبة تسرب بخارها إلى يافوخى لثوان .. ثم لم أعد أعرف أننى هنا ..

(آخر الليل حين تحين ساعة الذئب) .. ساعة الذئب هى تلك الساعة من الليل حين يغدو النائم فى أضعف حالاته وأوهاها .. ويصير معرضًا لأى إيعاز أو مسّ شيطانى ..

كنت ـ كالعادة ـ أحاول الفرار من ذلك الكائن المريع .. قمت بتسديد ركلة إلى ما أظن أنه مقتله ..
المكان هو ذلك القبو المفزع حيث تمارس طقوس استجواب الموتى ..

لم نبارحه بعد منذ خمس (حلقات) كاملة ..

ليلة أمس تمكنت أصابع (النكرومانسر) المحتضرة من الإطباق على كاحلى ، حيث تمدد على الأرض بلا حراك ..

اليوم أركله فى وجهه وأتملص من قبضته .. ثم أهرع نحو درجات سلم عتيق متهدم .. وأنا ـ

(كيف لم أره من قبل ؟)

ـ أتحاشى النظر إلى الوراء ..

كانت الدرجات تقود إلى باب موارب .. وأنت تعرف الرعب الكامن وراء هذه الأبواب المواربة فى الكوابيس ..

لكن ما ينتظرنى فى القبو لا يحتمل الانتظار ..

وهكذا أهرع لأفتح الباب الثقيل ذا الصرير بيد منهكة .. وأخطو إلى الداخل خطوة ..

تبًا ! إن ما أراه هو كهف متسع يمتد إلى ما لا نهاية تدلّى من سقفه الصخرى عدد من الهياكل العظمية .. يبدو أنها كانت لبشر تم شنقهم وتركوا على الحبال منذ دهر ..

أما ما كنت أقف عليه فهو بروز حجرى يطل على هاوية .. الهاوية ملأى بسائل أحمر يفور منذرًا بالويل .. ويتصاعد منها دخان خانق .. إنها حمم (لافا) كما يقول الجيولوجيون !

إذن لا مفر من هذه الناحية .. ما بين الأرض التى

صهرتها النيران والسقف المزين بثريات آدمية ..

لا بد من العودة .. لا بد ..

ولكن الشىء كان قد وصل إلى الباب ، وسده بجسده العملاق .. ثم راح يزحف نحوى !

هل أتراجع إلى الوراء ؟ لا مفرّ أمامى .. ولكن ماذا عن الهاوية السحيقة التى تنتظرنى ؟

رحت أئن .. أئن .. وأتراجع .. و .... يا أستاذ !

★ ★ ★

ضربة عنيفة على كتفى .. ففتحت عينى ..

كان هذا هو (القهوجى) الذى وقف ويداه فى جيبى مريولته المتسخة ولفافة التبغ إياها يدسها وراء أذنه ..

ـ « يا أستاذ ! لا تنم ! هذا ليس فندقًا ! »

نظرت له غير مدرك لما يحدث ، وقد شعرت لوهلة أن هذا جزء من الكابوس .. أضف لهذا الذعر الذى انتابنى حين شعرت بأننى لست فى فراشى .. بل أنا جالس فى مكان عام بارد لا أعرف ما هو ..

ـ « أنت لا تطلب مشاريب منذ ساعة .. »

هنا عاد وعيى إلىّ .. ومعه فار الدم فى رأسى .. فصحت :

ـ « وهذه القهوة ؟ رابع قدح أشربه هذه الليلة .. ثم ما الخطأ فى أن أنام فى المقهى ؟ أنا لست فى دار الأوبرا على ما أظن .. »

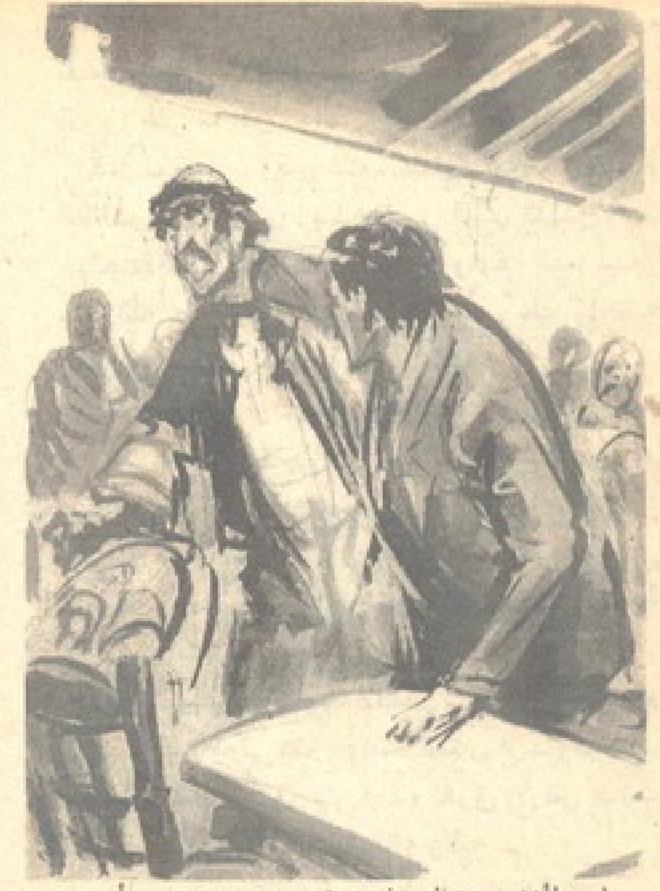
كان سمجًا .. وقال كلامًا كثيرًا عن (الأفندية المتشردين) وعن زبائن آخر الليل الذين هم ـ بالصدفة ـ زبائن آخر زمن .. وكيف أنهم أسفل خلق الله طرًا ، وأن من تخلى الناس عنه ولفظته الشوارع يحسب المقهى مأوى لأمثاله و ...

هنا لم أردّ .. أو ـ على الأقل ـ لم أرد بالكلام ..

وثبت لأنشب مخالبى فى عنقه ، ووجهت خمس أو ست صفعات إلى خديه الضامرين ، أعقبتها بتطويحه على الأرض ، ثم شرعت أوجه ركلات عشوائية إلى ضلوعه .. حتى بدا أننى لن أتوقف حتى تقوم الساعة أو يموت أحدنا ..

وفى النهاية كان أولاد الحلال ـ الذين يذخر بهم العالم ـ قد أبعدونى عنه ، وامتلأ المكان هرجًا ومرجًا .. وصحا النائمون .. ورأيت دماء تغرق الأرض سالت من أنف القهوجى وفمه وأسنانه وأذنه ..

وجاء صاحب القهوة (المعلم) يحاول الفتك بى ،



وثبت لأنشب مخالبى فى عنقه ، ووجهت خمس أو ست صفعات إلى خدية الضامرين ..

لكن أولاد الحلال ـ الذين هم فى كل مكان ـ أبعدوه عنى ..

وكانت مشكلة خاصة حين ظهر رجل شرطة .. وكان هناك محضر تعدّ لى .. ومحاولات صلح ... و ... و ...

وحين انتهى كل هذا كان ميعاد المدرسة قد حان !

★ ★ ★

فى المدرسة كانت عصبيتى موضوع الساعة ..

وكيف لى أن أعرف أن أخا زوجتى اختار هذا اليوم بالذات كى يأتى للحديث معى فى موضوع معين ؟

هو موظف ذو حيثية فى عمله ، ومعتد بنفسه .. وأنا أمقت المعتدين بأنفسهم لأنهم يكشفون عن ضيق أفق غير عادى .. أنا لا أعتد بنفسى إلا لو كنت عبقريًا من عينة (نيوتن) أو (أينشتاين) أو (غاندى) .. ومن الطريف هنا أن هؤلاء كانوا هم التواضع ذاته ..

أما الأسوأ فيما يتعلق بشقيق زوجتى ؛ فهو أنه يعانى حالة مزمنة من التدخل السافر فى حياتنا .. على أساس أن تدخله ضرورى .. وأنه لو لم يفعل

لعذبت أخته وجوعتها وأحرقتها بملعقة ساخنة ..

فى الماضى كان هذا يثير أعصابى ..

أما اليوم بالذات فهو قمين بأن يثير جنونى ..

قال لى حيث جلس فى غرفة المدرسين يجرع المشروب الذى طلبته له :

ـ « إن حالك يثير القلق حقًا .. ومنذ أسبوع كامل لم تبت فى دارك .. كنت تعود فى السادسة صباحًا .. »

ـ « أنت متابع نهم للأخبار .. »

قال فى وقار وهو يتجشأ من فعل (الصودا) :

ـ « عصبيتك تزداد والكل يعرف هذا .. »

ثم بدأ يلعب دور (الزميل) المتفهم .. قائلاً :

ـ لو كان هناك ما يضايقك من (ع) فلتخبرنى .. أنا وأنت رجلان يمكننا أن نفهم بعضنا .. انس قرابتى لها واجعل منى صديقك .. »

قلت له فى سأم وأنا أرشف القهوة :

ـ « لا مشكلة منها .. إننى أمر بحال نفسية سيئة لا أكثر .. »

قال بلهجة العليم ببواطن الأمور :

ـ « أعلم هذا .. وأعلم أنك زرت طبيبًا نفسيًا وهذا

يثير قلقى .. ثم إن ذقنك غير حليقة وثيابك غير مهندمة .. كأنك كنت تتصارع طيلة الليل .. ربّاه ! لشد ما تغيرت .. لا تخف عنى شيئًا .. إنه الحشيش .. أليس كذلك ؟ إن هذه العلامات لا تفوتنى .. ربما الخمر ؟ هذا يصدمنى فيك .. أنت الذى كان مثال الاستقامة والتدين .. إنك تنحدر .. الكل يعلم هذا ، لكنك عنيد .. عنيد جدًا تأبى العون .. واسمح لى ..... »

هنا شعرت بالبخار الأسود يتصاعد إلى عينى :

ـ « هلْ حكت لك عن الأشياء التى أجدها فى الفراش ؟ »

ـ « أية أشياء ؟ تقول : إنك مضطرب نفسيًا وتمشى فى أثناء النوم .. وأكثر من هذا .. »

ـ « تبًا لكما معًا ! »

وبالطبع يا د. (رفعت) لك أن تتخيل ما تلا هذا الموقف ؛ وكل الصراخ الذى تصاعد من حنجرتينا .. فهذه العبارة الأخيرة هى من (العبارات الخاتمة) .. أى تلك التى يستحيل الاعتذار بعدها أو التراجع عنها ..

وبعدها لا تعود الحياة أبدًا كما كانت ..

كان هناك عديد من المدرسين يحاولون إنهاء الموقف .. وكان هناك حشد من الطلبة وقفوا حول الباب يرمقون المشهد فى شغف ؛ وكلهم أمل فى أن يحدث ما هو أسوأ ..

وانصرف وقد احتقن وجهه ، وتطاير اللعاب من فيه ، وراح يردد فى هستيريا :

ـ « لكنى سأعرف كيف أربيك ! قسمًا سوف أعرف كيف أربيك ! ولكن صبرًا ! إن لى صلات .. ولن لم ..... »

ـ « أغلق هذا المجرور الذى ينبعث منه العفن ! »

قلتها صارخًا .. وأوشكت أن أثب عليه لولا من أمسك بى ..

وبعد ما ساد الهدوء المكان أخيرًا ، وبعد ما سيق الطلبة الواقفون إلى فصولهم تحت تهديد العصى ، كما يفض الإنجليز مظاهرة سلمية فى الهند أيام (غاندى) ، عندئذ فقط سمعت من يقول لى إن الناظر يريدنى فى مكتبه .. ليس للحديث عن الفن التأثيرى طبعًا ..

وعندئذ فقط عرفت ما يقودنى إليه ذلك الجاثوم ..

* * *

كانت الدار خاوية تمامًا ..

وعلى مائدة الطعام كانت هناك وجبة باردة مُعدّة .. ورسالة بها كلام فارغ مملوء بالأخطاء النحوية والإملائية والبلاغية ..

لقد رحلت زوجتى .. بالتأكيد علمت ما حدث فى المدرسة .. وبالتأكيد هى ستقيم فى دار أبيها حتى أذهب صاغرًا لأعدها بأننى لن أحلم مرة أخرى بالكوابيس ..

عجيبات هؤلاء النساء ! إنهن يفتقرن للمنطقية فى كل شىء .. هى بالذات تعرف ما يجرى فى عقلى هذه الأيام ، وتعرف أننى قد زرت الطبيب النفسى مرارًا .. وبرغم هذا كله تجد أن سلوكى غريب إلى درجة الهجر ..

لكنى أعرف سذاجتها وطيبتها ، وأعرف أن هذه القرارات الحازمة ليست من ديدنها .. بل هناك من أملاها عليها إملاءً ..

على كل حال هى قامت بآخر واجب نحوى .. كعادتها فى حب الاستشهاد والظهور بمظهر الضحايا .. أعدت لى غدائى .. وبعين الخيال أراها تردد طيلة اليوم فى مجلس أسرتها :

ـ « إننى لم أنس غداءه حتى فى أحلك اللحظات »

إنن لأستمتعن بهذه التضحية خير استمتاع .. فأنا لا أتخلى عن شىء دفعت ثمنه مقدمًا .. ثم إننى لست من البلهاء الذين يفقدون شهيتهم حين تسوء الأمور ..

فما ذنب المعدة فى كل هذا ؟

★ ★ ★

انصرف آخر طالب من دارى ..

فجلست ألتهم العشاء .. وأتابع شاشة التلفزيون بذهن مشتت .. كان الفراش يدعونى وأنا لم أذق النوم أمس ..

لكنى أهابه .. أهابه كثيرًا ..

إن هذا الفراش مسرح ستؤدى عليه بعد ساعات مسرحية شديدة البشاعة والهول ..

أعرف أننى سأبدأ الكابوس بتلك اللحظة الرهيبة ..

أنا واقف على حافة الهاوية أحاول التماسك ، بينما الجاثوم يدنو منى متمهلًا .. ولا بد أن أسقط ..

هنا خطرت بذهنى فكرة لا بأس بها ..

إذا كانت الماديات تسافر من داخل الكابوس إلى عالمنا ، فلم لا يحدث العكس ؟

ـ لقد كان الشاعر الإنجليزى اللورد (بايرون) ينام بمسدس ـ كان اسمه وقتها غدّارة ـ تحت وسادته ؛ كى يقاتل من يزوره فى المنام من مسوخ ..

لماذا لا أفعل ذات الشىء ؟

ليست لدىّ غدّارة .. لكن عندى ما هو خير منها أو مثلها ..

وابتسمت فى خبث ..

★ ★ ★

٦ - دعنا نفرّ بعيداً ..

أعترف بأنني أشعر بالخوف ..

إنني لم أكن وحيدًا فى حياتى قط .. ولقد تركت بيت أسرتى المزدحم إلى هذا البيت مباشرة فلم أمر بوحدة أو عزوبة ..

لهذا يثير هلعى أن أنام .. وحدى أنام فى الظلام فريسة سهلة .. لا أدرى ما يحدث فى الردهة المظلمة ، ولا ما يحدث فى غرفة الصالون الموصدة دومًا ..

وعندما تحين (ساعة الذئب) لا يعلم سوى الله ما قد يحدث لى ..

* * *

وأخيرًا انتصرت الفسيولوجيا ..

غبت فى الظلام المقدس .. الظلام الذى كنا نراه فى أرحام أمهاتنا .. وبدأت الرؤى ..

مرة أو مرتين صحوت من النوم لأتأمل قرص المنبه الفوسفورى فى الظلام ، وأنظر إلى جانب

الفراش الذى كانت (ع) تنام فيه .. شاعرًا أنها مازالت هناك وأن أنفاسها تتردد ..

إن من بترت أطرافهم يعانون لفترة طويلة الشعور الوهمى بها .. ويحركون أصابع لا وجود لها .. ويشعرون بملمس أشياء لم يلمسوها .. وهو ما يسميه الجراحون باسم (الطرف الشبح) ..

هكذا بترت (ع) من حياتى .. لكنها - بشكل ما - مازالت هنا ..

آخر الليل يدنو ..

وحين بدأ الحلم التالى عرفت أن ميعادى مع الجاثوم قد حان .. وهأنذا أقف فى ذات الموضع على حافة الهاوية ، مترددًا بين الوثب فى الحمم أو انتظار الشىء المريع القادم من ورائى ..

وهنا تذكرت ..

هذه المرة لست أعزل .. بل أنا مسلح بسلاح قاتل حقًا ..

كان هذا هو المنشار الكهربى الذى وضعته فى الفراش جوار (الكومود) قبل النوم ، وأوصلته بالقابس ..



سمعته يحاول استعادة توازنه ، ثم هوى دون إنذار إلى الهاوية ..

والآن ـ فى المنام ـ أرانى أمسك به وأشغله ..

فروووووووم !

القرص المسنون القاتل يتحرك باحثًا عن شىء يبتره ..

كان الوحش أمامى .. جسدًا مليئًا بنقاط الضعف .. وكنت أنا فى وضع يسمح لى بكل شىء ..

وهكذا دار القرص دورته ، وانغرس فى اللحم .. وسمعت صوتًا غاضبًا شبيهًا بهدير دراجة بخارية ..

فى اللحظة التالية وثبت جانبًا حين انقض علىَ الشىء الذى جنّ جنونه ..

سمعته يحاول استعادة توازنه ، ثم هوى دون إنذار إلى الهاوية .. ولم يكن عندى ما يكفى من وقت كى أتملى مشهد السقوط ، لأننى كنت أوشك على أن أفقد التوازن أنا الآخر ..

ولحسن الحظ أن المنشار انزلق لينغرس إلى منتصفه فى الصخر ، مما جعل منه وتدًا أتشبث به بكلتا يدىّ ..

وحين استعدت توازنى نظرت إلى أسفل .. للأسف ! لم يكن قد غرق فى الحمم .. بل هو متشبث

بالحافة وهو يرمقنى فى كراهية بعينين حمراوين ..

يجب أن أتراجع .. يجب أن ....

هنا شعرت باليد المخلبية المريعة ترتفع لتقبض على كاحلى !

وأدركت أنه يجذبنى من أسفل نحو الحافة ..

* * *

كنت أئن .. أئن ..

وحين صحوت من الكابوس مبللاً بالعرق البارد .. أرتجف كورقة ؛ أدركت أن الجاثوم وضعنى مرة أخرى فى مأزق ..

يجب انتظار حلقة غد لمعرفة ما حدث ..

أضأت الأباجورة وملت على (الكومود) بحثًا عن المنشار الكهربى .. لكنه لم يكن هناك !

هذا طبيعى .. ألم أتركه مغروسًا فى الجدار الحجرى داخل الكابوس !

وضحكت فى هستيريا ..

يجب أن أستعيده غدًا لأن ثمنه باهظ .. ولأنه أكثر قيمة من كل الهراء الذى حصلت عليه من كوابيس سابقة ..

أما الآن وقد انتهى الكابوس فلا أرى ما يمنع من أن أنام نومًا هادئًا مطمئنًا .. ومن يدرى ؟ لعلى أحلم بالزهور أو الغزلان أو البحار الجنوبية هذه المرة ..

* * *

سألته وأنا راقد على الأريكة أتأمل المدفأة تتوهج بذلك اللون الأحمر الغامض :

ـ « هل استحققت لقب (مجنون) بعد ؟ »

قال د. (م . ن) بصوته الرتيب المريح للسمع :

ـ « لا أظن هذا .. فيما مضى كان الجنون هو ما يسمون به حالتك .. ثم جاء علم النفس ليطلق عليها أسماء جميلة غامضة مثل (عصاب) و (وساوس) و (ضلالات) .. »

قلت له وأنا أغطى وجهى بكفى :

ـ « لكن زوجتى رأت ما رأيت .. »

ـ « لكنها ليست هنا كى تؤكد أو تنفى .. »

ـ « أنت لا تثق بكلامى إذن .. »

ـ « بل لا أثق بعقلك .. لكنك صادق فيما تعتقده .. »

ثم ـ بعد هنيهة صمت ـ تساءل :

ـ « هل فقدت عملك بعد المشادة إياها ؟ »

- « لا .. ليس إلى هذا الحد .. كانت لدى (روشتات) عدة منك تثبت أننى أتلقى علاجًا نفسيًا .. وقد جعل هذا الناظر مذعورًا منـى .. لم يجسر على اتخاذ رد فعل ما .. نصحنى بأن آخذ إجازة .. »

قال د. (م. ن) وهو يخط شيئًا على الورق :

- « تريد رأيى ؟ أعتقد أن هذا سيكون مناسبًا .. »

- « لكن حياتى .. وعملى .... »

- « إن حياتك رتيبة ومملة أكثر من اللازم .. كثور - واسمح لى - مربـوط فى ساقية .. أعتقد أن هذا الضغط قد أحرق مصباح جهازك العصبى .. »

- « والحل ؟ »

- « الحل هو الفرار بعيدًا .. بعيدًا .. »

- « والدروس الخصوصية ... و ... ؟ »

- « لو لم تفر فأنت حتمًا فاقد ما هو أكثر من بضعة جنيهات تأخذها من الآباء .. »

تنهدت فى استسلام ولم أجد ما يقال ..

الفرار .. حتمًا .. ولكن إلى أين ؟

أنا - بطبعى - عاجز عن الاسترخاء .. ولست من هؤلاء القوم الذين (يتنزهون) .. لا بد من هم ما ،

يطاردنى طيلة الوقت وإلا ما عددت نفسى حيًا ..

سأسافر .. ولكن إلى أين ؟

★ ★ ★

فرغت من تصحيح الكراسات جميعًا ..

سيكون هذا آخر عمل أقوم به فى المدرسة قبل بدء إجازتى .. ومددت يدى لأطفئ النور الكهربى .. ثم تقلبت فى الفراش وتدثرت بالغطاء ..

أستطيع أن أظل ساهرًا .. لكنى لا أعرف جدوى ذلك .. فالجاثوم إن لم يأت هذه الليلة آت غدًا أو بعد غد ..

وحينما جاء آخر الليل ؛ سمعت من بعيد صوت ديك يصيح .. ديك يعانى عطبًا فى ساعته البيولوجية حتمًا ..

وبدأ الكابوس من حيث انتهى ..

مخالب الكائن تقبض على كاحلى تحاول أن تجذبنى إلى الهاوية .. وأنا أحاول أن أصرخ دون جدوى ..

تشبثت أناملى بالصخور الملساء ..

وهنا وجدت المنشار الكهربى فى يدى ..

ولم يكـن هناك خيـار .. أدرت الأداة القـاتلة وبيد

مرتجفة هويت بها على معصم المخلوق ..

وعلى الفور دوت الصرخة .. وتردد صداها فى الهاوية ..

ومن الطرف المبتور تصاعد دخان أزرق .. وانتشر سائل لزج مقزز أخضر اللون ليلوث كل شىء ..

لكن اليد الأخرى ظلت ممسكة بالحافة الصخرية ..

من ثمّ أزمعت أن أبترها هى الأخرى ، وأتخلص للأبد من هذا المسخ ، الذى ستبتلعه الحمم بعد ثوان ..

ركعت على ركبتى .. وتأملت الوجه المقزز الذى يرمقنى فى إصرار .. وبحذر بدأت أحاول الوصول إلى يده السليمة ..

لكنى شعرت عندها بيد أخرى توضع على كتفى ..

نظرت للوراء ، فوجدت النكرومانسر ـ الذى نسيت أمره تماماً ـ يقف خلفى .. وقد رأيته من تلك الزاوية المنخفضة التى يستعملونها فى السينما للدلالة على السيطرة أو التملك ..

قال لى بصوت رتيب لا انفعال فيه :

ـ « تشجع ..! »

وكان هذا آخر ما سمعت ..

لأننى شعرت بأننى أهوى من حالق نحو الهاوية .. صرخاتى تدوى فى الأرجاء .. والحقيقة المروعة تقتلنى : لا توجد أرض تحت قدمىّ ..

* * *

انتفضت رعبًا .. وصحوت من النوم صارخًا كالعادة :

ـ « لا يمكن أن يستمر الوضع هكذا .. إن ما أنا فيه هو الكابوس الحقيقى الذى لا مفر منه سوى بالانتحار ـ وهذا مستحيل ـ أو الجنون ـ وهذا ليس بيدى ـ لأن أحدًا لا يملك معاونتى ..

كان المنشار الكهربى على الأرض جوار الفراش ..

لا بأس .. على الأقل لم أخسر كل شىء ..

وكان ألم ممض يمزق كاحلى .. لماذا ؟

الإجابة واضحة .. لأن آثار مخالب الوحش ظاهرة على جلد الكاحل بوضوح تام ..

وثمة شىء أكثر أهمية ..

هل حدست ما هو ؟

* * *

٧ - البجعة الوحيدة ..

جالسًا جوار نافذة القطار رحت أتسلى بمطالعة مجلة سخيفة ، وأتأمل شريط الحقول الذى يزحف كثعبان طويل أخضر ..

ثلاثة أسابيع فى الإسكندرية .. سيكون هذا علاجًا ناجعًا لتوترى وعصبيتى .. أضف لهذا تلك المغامرة غير المسبوقة لى : ألا يكون أمامى موعد ما أو مشكلة ما .. ألا يثير هذا الشغف ؟

اعتذرت للطلبة ، وأبلغت زوجتى - من خلال وسيط - بسفرى ، وحزمت حقائبى .. ليس لى أحد فى الإسكندرية ، لهذا سأقيم فى (بنسيون) صغير تديره عجوز يونانية شمطاء .. إن لهذا مذاقًا ممتعًا كمذاق قصص (نجيب محفوظ) .. ولن أدهش كثيرًا لو رأيت (حسنى علام) جالسًا فى البهو يرشف القهوة(*) .

(*) يعنى رواية (ميرامار) لـ (نجيب محفوظ) .

والحق أننى ما كدت أبرح القطار حتى بدأت أشم فى الجو هذا العبق المميز لهواء البحر ..

شعرت أن الاسترخاء قد بدأ يداعب روحى .. ومخاوفى تزول كما يزول الوحل عن ثوب غمرته فى البحر الأبيض المتوسط ثلاثة أسابيع ..

* * *

وفى ضوء النهار ، وعلى صوت الأمواج التى ترسل لى شذرات من بللها كأنما تلثم خدى على استحياء ؛ بدا لى ما مررت به كابوسًا ثقيلاً لكنه لا يمت بصلة للواقع ..

إننى حىّ .. وهذا نصر فى حدّ ذاته ..

إننى لم أفقد زوجتى ولا عملى .. كل ما هناك هو أننى أمر بفترة ابتعاد صحّى عنهما .. وحين أعود سأكون أفضل وأقوى ..

كانت لافتة (البنسيون) أمامى .. وأنا لن أذكر اسمه ولا مكانه ، لكنى أقول لك إن له اسمًا يونانيًا موحيًا ..

وكانت مدام (إيرينى) بانتظارى حين دخلت المكان .. حيث جلس نفر من النزلاء يقرءون

أو يشاهدون جهاز التلفزيون .. وكلهم لحسن الحظ طراز من الشيوخ المهذبين الوقورين قليلى الكلام ..

ملحوظة د. (رفعت) :

عرفت (البنسيون) الذى يتحدث عنه ! فمن المصادفة أنه ذات المكان الذى كنت أقضى فيه ليالى الجمعة قبل عودتى للقاهرة ، وذلك حين كنت خطيب (هويدا) .. أذكر المكان وأذكر مدام (إيرينى) التى تزعم أنها من سلالة ملوك .. ولكن .. كم من أعوام مضت من حينها !

نعود لكلام الأستاذ (هـ) ..

ما إن استقررت فى غرفتى .. وتخلصت حقائبى من أحمالها ؛ حتى ارتديت ثيابًا خفيفة .. صحيح أن الشتاء لم ينته بعد لكن الجو دافئ إلى حدّ كبير ..

وخرجت أجول فى المدينة الحسناء ، أشعر تحت قدمى بملمس قدمى (كليوباترا) الدقيقتين ، وصندل (الإسكندر) الثقيل ، وخفىّ (محمد كريم) إذ خرج ليواجه جند الصارى عسكر (بونابرطة) .

وكانت البداية فى كافتيريا صغيرة تحمل اسم (بورصة الـ ...) .. حيث جلست أرشف القهوة وأدخن وأتأمل المارة ..

كنت أفكر دون انقطاع ..

أتراني مجنونًا حقًا ؟ أترى كل ما مررت به من تفاصيل كان تلفيقًا من ذهن مكدود وطفولة معقدة ؟

مستحيل .. أنا أعرف نفسى .. وأعرف أننى لم أجن بعد .. ولكن كل المجانين يزعمون أنهم يعرفون أنفسهم مثلى ..

حسن .. لنقل بقوانين الاحتمالات إننى قد أكون مجنونًا بنسبة ٥٠ ٪ فماذا بيدى أن أفعل ؟!

* * *

مرت ثلاث ساعات علىّ ..

وبدأت أدرك فى هلع أننى أشعر بالملل ! بعد ثلاث ساعات كنت قد قمت بكل ما يمكن أن يقوم به رجل وحيد .. ولم يعد سوى فراغ محبط مرهق .. وبدأت أفهم حقيقة أن ثلاثة أسابيع هى وقت طويل جدًا بالنسبة لإنسان وحيد ..

إن عبء هذه الأسابيع يجثم كالصخرة على روحى ..

سأظل أمشى فى الشوارع ، وأرتاد كل المقاهى ، وأرشف كل شىء بدءًا بعصير الليمون وانتهاءً

بالقهوة السادة ، وأدخن حتى أصاب بسرطان الرئة ..
ثم ماذا بعد هذا ؟

إن السينما حلٌ لا بأس به حاليًا ..

ستمر علىّ ثلاث ساعات أخرى أقضيها فى حلم .. ثم أعود إلى (البنسيون) لألتهم عشائى وأنام .. وبذا ينتهى اليوم الأول من فترة سجن الاسترخاء هذه ..

كانت هناك سينما فى الشارع تعرض تحفة (كاكويانيس) التي سماها هو (يوم طفت الأسماك ميتة) ، وسماها الموزع (الرقص على الهيدروجين) .. وأنا رجل أعشق الدقة والتحديد لهذا أمقت الفنون جميعًا لأن الخيال هو محورها .. لكن هذا الفيلم يستحق بالتأكيد ...

وهكذا .. جلست فى مقعدى أتابع أحداث القصة المسلية التى قد تحدث عاجلا أو آجلاً .. وفاجأت نفسى أضحك أكثر من مرة من كوميديا الموقف الراقية ، عندها فهمت سحر السينما .. إن مشكلاتى فى عملى ومع زوجتى ومع حالتى النفسية تتوارى بعيدًا .. ولم يعد يعنينى فى الحياة سوى

قضية الصاروخ الهيدروجينى الغارق على ساحل جزيرة يونانية غافلة ..

فى مرة ضحكت وارتكزت على جانبى المقعد ، فاصطدمت كفى بكف من يجلس إلى جوارى .. غمغمت بعبارة اعتذار ونظرت نحوه ..

الواقع أننى نظرت نحوها .. لأنها كانت فتاة .. فتاة ترتدى العوينات وتعقص شعرها ، وقد انعكس ضياء الشاشة على زجاج عويناتها فبدا كأنما يضىء هو ذاته .

لم أستطع تمييز ما هو أكثر، لأن الضوء لم يسمح بأكثر ..

كانت وحيدة .. لأن المقعد المجاور لها كان خاليًا .. وتعجبت من كونى لم ألحظها من قبل ..

قلت لها مواصلاً اعتذارى :

ـ « معذرة .. فأنا حين أضحك لا أتمالك نفسى .. »

قالت بصوت مشع كعويناتها :

ـ « هذا غريب .. لا أرى ما يضحك هنا .. إن القصة محزنة حقًا »

ـ « إنه كل هذا الحمق الذى يتصرف به أهل

الجزيرة .. الحمق يثير ضحكى دائماً .. إن الفيلم يسخر من كل هذا .. »

ـ « إنهم ليسوا حمقى .. إنهم بسطاء .. »

وعادت تتابع الأحداث .

أما أنا فقد شدتنى البساطة ـ دون حمق ـ التى تكلمت بها مع غريب مثلى .. كأنها تعرفنى من زمن .. وبرغم هذا لا تبدو متحررة أو وقحة .. كأنها تناقش زوجها أو أخاها بلا أى غرض سوى المناقشة فى حد ذاتها .. إن هذا الأسلوب يحير الرجل الشرقى الذى لا يتوقع من الفتاة إلا أن تكون شديدة الحياء أو شديدة المجون ، ولا يفهم أى أسلوب آخر فى التعامل ..

ولكن ـ لن أطيل عليك ـ مضينا نشاهد الفيلم معاً ، ومع الوقت تبادلنا الكثير من التعليقات والآراء ..

وللمرة الأولى وجدتنى قد نسيت تماماً أنها أنثى .. إنها صديق مثقف ذكى يجلس إلى جوارى فى السينما ، وينعش روحى بآرائه الشائقة غير النمطية .. التى لا تفسد ما نراه على الشاشة ..

وحين صرخ القوم فى وسط الكرنفال :

ـ « إن الأسماك تطفو ميتة ! »

وحين راح مكبر الصوت يردد بلا انقطاع :

ـ « انتبهوا ! »

قالت لى وهى تخلع عويناتها لتضعها فى حافظتها :

ـ « هذه هى نهاية الفيلم .. (كاكويانس) يحذر العالم الغافل من خطر التلوث النووى .. والآن هيا بنا نرحل قبل أن يبدأ الزحام .. »

سألتها وأنا أنهض وأفسح لها الطريق كى تتقدمنى :

ـ « هل رأيت الفيلم من قبل ؟ »

ـ « ست مرات ! »

ومشينا صامتين نحو المخرج المضىء نحاول ألا تتعثر أقدامنا فى الظلام .. وعندما غمرنا النور أخيراً استطعت أن أرى وجهها ..

لم تكن جميلة على الإطلاق بل هى أقرب إلى القبح .. لكن شيئاً ما ساحراً فى وجهها يجعلك تحب النظر إليها مراراً .. وكانت هشة نحيلة كقضيب من زجاج ، وبدت لى ثيابها بسيطة أنيقة محتشمة .. إنها (بنت ناس) بالمعنى الشائع للكلمة ..

قلت لها فى تهذيب :

- « أنا (هـ) .. مدرس من القاهرة .. »

ابتسامة خافتة على وجهها وهى تقول بصوت مشعّ :

- « (إيناس) .. مدرّسة من الإسكندرية ! »

يا لها من مصادفة ! حسبتها من المهتمات بالفلسفة أو الأدب .. أو من خريجات الفنون أو معهد السينما ..

- وماذا تدرّسين إذن ؟

- « أقوم بتدريس الرسم لطالبات المرحلة الإعدادية .. »

- « آه .. هذا يفسر كل شىء .. »

- « لا يفسر .. أنت تعرف مقرر الرسم وتعرف ألا علاقة له بالفن بتاتًا .. تصميم مفرش .. بطاقة معايدة .. عروس المولد .. عيد الأم .. كلها مواضيع وضعها موجهون يمقتون الفنّ ويحاولون جعل الطلبة يمقتونه بالمثل .. »

لا أدرى متى ولا كيف جلسنا فى الكافتيريا نتحدّث عن كل شىء .. إن هذه التفاصيل لا تهم أحدًا سواى .. ولو كان لى أن ألخص الموقف فى سطور لقلت لك : إننى تعرفت فتاة فى السينما .. وقمت بدعوتها إلى قدح من الشاى ..



لا أدرى متى ولا كيف جلسنا فى الكافتيريا نتحدّث عن كل شىء .. أن هذه التفاصيل لا تهم أحدًا سواى ..

إن التفسير الخلقي الصارم يقول : إن هذه فتاة مستهترة ، تقبل أن يدعوها إلى الشاى رجل لم تره إلا منذ ساعة .. ، لكنى - أؤكد لك - لم أر فيها شيئًا كهذا .. كانت مهذبة بسيطة عفوية .. فيها (طهارة تبعث التقديس فى مهجة الشقىّ العنيد) و (ورقة تكاد يرقّ الورد منها فى الصخرة الجلمودِ) على رأى الشاعر التونسى العظيم (أبو القاسم الشابى) .. وأنا رجل غير شاعرى يا د. (رفعت) .. بل أنا أمقت الشعر مقتًا .. لهذا صدّق ما أقول دون جدال ..

كانت (إيناس) فى الثلاثين من عمرها .. مطلقة .. ليس عن عيب فيها ، بل فى ذلك الذى تزوجها وهو أنه :

- « .. مستهتر .. لا يعرف قيمة البيت ولا الأسرة .. »

وبعد ما استعادت حريتها ، صممت على أن تعيش الحياة التى تريدها هى لا التى يختارها لها أهلها .. وكان أول شرط لها فى هذه الحياة هو أن تخلو من الرجال .. لأن ...

- « الرجال يفسدون كل شىء .. ولا يحترمون حرية المرأة .. ولا يتركون لها فرصة الاستمتاع بالفنون ،

لأنهم يعتقدون أنها لا تحب الفن عن أصالة بل ادعاء .. »

أعترف لك يا د. (رفعت) أننى أنا ذاتى من هذا الطراز الذى تتحدث عنه .. وأومن أن المرأة لا تدرس فى الجامعة إلا لتتزوج جامعيًا .. ولا تعزف على البيانو إلا أملاً فى الظفر بعريس يحب الموسيقا ..

لكن (إيناس) قررت أن تكون مستقلة .. وهى اليوم تعيش فى شقة بالإسكندرية مع ثلاث من صديقاتها .. بعضهن مدرسات وبعضهن موظفات .. ومن هذا تستنتج أنها ليست اسكندرانية أساسًا ..

- « وماذا عن أهلك ؟ »

- « حاولوا كثيرًا .. وكانوا فى غاية الحنق .. ثم بدءوا يفهمون أننى لا أفعل ما يخالف عقائدى وتربيتى .. كما أنهم شعروا بالذنب لأنهم دمروا حياتى فيما سبق دون جريرة منى .. لهذا تركونى .. لكن تحت رقابة صارمة .. إن أخى يزورنى ثلاث مرات كل أسبوع .. وكذا أمى كل شهر .. »

سألتها وأنا أرشف ما بقى فى قدحى :

- « إذن أنا لا أدخل فى قائمة الرجال ؟ »

احمرّ وجهها قليلاً وقالت :

ـ « لا .. بالطبع .. فقط تبدو مختلفًا عن الآخرين .. ثم إن الرجل الذى يشاهد فيلم (الرقص على الهيدروجين) بهذا الانفعال ، حتى لا يشعر بوجود فتاة وحيدة بجواره لهو رجل يختلف .. »

وحين انصرفنا كنّا قد صرنا صديقين حقًا ..

ونظرت نحوها وفى عينى سؤال صامت : هل هناك مرة أخرى ؟

لكنى لم أجرؤ على الكلام حتى لا تحسبنى (كالآخرين) ..

قالت هى فى بساطة وقد قرأت أفكارى :

ـ « بالطبع يمكن أن نلتقى هنا غدًا .. لكنى أحذرك .. »

والتمعت نظرة شرسة إلى حد ما فى عينيها :

ـ « لا تحاول أن تحدثنى عن سهرك وسهادك فى حبى .. أو أى ضرب من هذا الكلام الفارغ .. وإلا لن ترانى ثانية .. »

ـ « هذا وعد ... »

★ ★ ★

كانت الحادية عشرة مساء حين عدت إلى (البنسيون) ..

كانت غرفتى مريحة منسقة بها رائحة عطرية خفيفة .. وكانت دافئة كقدمىْ رضيع فى حضن أمه ..

سأغفو هذه الليلة كخلد الماء ـ لو كان هذا الحيوان يغفو ـ ولن أرى أية كوابيس .. فأنا خال من التوتر .. خال من العصبية .. خال من أحزان الأمس وإرهاق اليوم ومخاوف الغد ..

مددت يدى إلى الكتاب الذى قررت أن يكون معى فى سفرى ، وهو كتاب (تفسير الأحلام) للعالم العظيم (سيجموند فرويد) .. واستلقيت فى الفراش أطالع هذا العمل شديد التعقيد والذى لا يمكن التحقق منه أبدًا .. فقد يكون عبقريًا وقد يكون نوعًا من القياس الخاطئ المبالغ فيه ..

يرى (فرويد) أن الأحلام ليست لها قدرة تنبؤية ما .. بل يرى أنها هى التعبير عن عقلنا الباطن الذى يتحرر فى وقت النوم ، فيبدأ فى الإفصاح عن نفسه وعن رغباته المكبوحة المكبوتة ..

لكن رقابة من نوع ما تسيطر على هذه العملية ..

لهذا تظهر الأشياء بشكل رمزى .. والشطرة الأولى من بيت الشعر تقال فى الحلم للدلالة على الشطرة الثانية .. وتحريف الألفاظ والأرقام للبعد عن معناها يتم على نطاق واسع ...

قد ترى فى الحلم تنويعًا على شىء رايته وعمرك خمسة أعوام .. مع مكان رأيته اليوم فقط .. مع عبارة سمعتها من عامين من بائع فى السوق ، وكل هذا يُراد به معنى ما .. لا تجرؤ على مصارحة نفسك به ..

إنه كتاب رهيب .. يخوض بك عبر كهوف لم يرتدها إنسان من قبل .. هى كهوف ذاتك ، التى هى أكثر غموضًا ورهبة من أى كهوف فى أصقاع (سيبريا) أو صحارى إفريقيا أو جبال (الهيملايا) ..

لكن الكتاب ـ بعد مراجعة سريعة له ـ لم يقدم لى إجابة السؤال الذى كنت أريده .. لم يحدثنى عن (الجاثوم) ..

غدًا أقرأ فصولاً من كتاب (ابن سيرين) علّه يقدم لى الحلّ ...

قبل أن أطفئ الضوء نهضت إلى حقيبتى ..

أخرجت منها كيسًا ورقيًا غلفته بإحكام وقمت بربطه بحبل ..

جئت معى بهذا الكيس من القاهرة ، فقط لأتأكد من عدم جنونى .. وهذا الكيس يحوى شيئًا أكثر أهمية من بعض الفطير أو الكعك أو ما إلى ذلك مما يحمله مسافر معه ..

إنه يحوى يدًا مبتورة ..

يد الكائن التى قطعتها فى حلم البارحة ...

* * *

٨ - هل هو حق ؟

نعم .. هذه هى الحقيقة ..

إذا أنت لم تصدقها يا د. (رفعت) فهذه مشكلتك أنت .. إن شمس منتصف الليل ستظل تظهر فى (النرويج) سواء صدقت هذا أم لم تصدقه ..

لقد انتهى الكابوس السابق بأثر مادىّ أكيد ، هو انطباق يد (الجاثوم) حول كاحلى .. وحين أفقت من النوم كانت اليد هناك .. وجدتها فى مكان ما بين الأغطية وأنا أحاول العودة للنوم ..

طبعًا لا تسلْ عن الذعر الذى أصابنى ، ولا التقزز الذى دهانى .. فكل هذه أشياء مفروغٌ منها ..

لكنى على الأقل أملك الآن دليلاً ماديًا .. أثرًا لا يمكن الحصول عليه بالمشى فى أثناء النوم .. وأنا - إذن - لا أهذى ..

لكننى - كذلك - كنت أعقل من أن أعرض كشفى على الملأ .. فإن أحدًا لن يجد ما يثير شغفه فى كف

مخلبية يكسوها الشعر ، أزعم أنا أنى عدت بها من كابوس مرعب ..

قمت بلفها بعناية فى كيس من المشمع ، ثم فى كيس ورقى .. وحملتها معى فى حقائبى عازمًا على الاستفادة منها بشكل ما ....

الآن فقط أتذكر حقيقة وجود هذا الأثر المفزع معى ..

★ ★ ★

وكان نومًا موصدًا ثقيلاً خاليًا من الأحلام ..

أحيانًا أستيقظ - كدأب من ينامون فى مكان غريب - متوقعًا أننى سأرى الكومود على يسارى ، والمنبه فوقه ، والباب عند قدمى ، ثم كنت أفقد توازنى للحظة وأنسى أين أنا ، ثم أستعيد بديهتى وأتمتم بدعاء النوم ، وأغيب من جديد فى السحابة السوداء ...

وهكذا لم أدر أنه آخر الليل ، إلا حين سمعت صراخى ..

الحمم تقترب منى بسرعة مذهلة ، ولا أرض تحت قدمى ...

ومن فوق رأسى أرى النكرومانسرْ واقفًا على

الحافة يرمقنى فى شغف .. وأرى الكائن المعلق بيد واحدة من الحافة ..

وأمدّ ذراعى إلى جانبى .. بكل نداء الغريزة التى أورثها إياى أجداد كانوا لا يجدون مأوى سوى غصون الأشجار ..

إن قلبى سيتوقف ها هنا حتمًا ......

وهنا أشعر بغصن الشجرة ـ لا أدرى من أين جاء ـ يتعلق بسترتى .. وأجد أننى أتدلى فى الهواء الحارّ كأرنب معلق من قذاله ....

ثمة فتحة يكتنفها السواد إلى جوارى ..

إنه كهف فغر فاه بانتظار فرائسه الآدمية ..

إن الهاوية من تحتى .. والوحشين فوق رأسى ..

لن يكون هذا الكهف أسوأ احتمال إذن ...

وأتلوى بعنف حتى أنجح فى حشر جسدى داخل الفتحة ..

إن الظلام دامس .. دامس .. ظلام بكر لم تتلوث عذريته بالضوء من قبل .. ربما منذ بدء الخليقة ...

إن هذا القصر لعجيب .. كأنه بُنى فوق مجموعة كهوف كاملة .. فلأدخل .. ولا أفكر فى الثعابين ولا الحفر ولا الانهيارات ..

تبًا للظلام ! إننى من هذا الطراز العجيب من البشر الذين يختنقون فى الظلام ، كأنما يجثم اللون الأسود على صدورهم ..

ثمة شىء فى هذا الموضع كأنه ـ

(رباه ! إن هذه الأرض لينة تمامًا !)

ـ مقبض مثبت فى الصخر ..

هل أجذبه ؟ لمَ لا ؟

وجذبته .. عندها حدث شىء لم أتبينه جيدًا ..

لكنى وجدت نفسى فى الشمس .. فى العراء ..

كان هناك حقل قمح يمتد أمام نظرى إلى ما لا نهاية ، له ذلك اللون الأصفر الوحشى المميز للوحات الهولندى (فان جوخ) ..

وكنت أركض .. أركض ..

هذه المرة كانت سرعتى أكثر من المعتاد .. كنت أخفّ مما أنا عليه بكثير ، كأننى فى مرحلة ـ

(صوت المحرك هذا !)

ـ انعدام الوزن .. و ....

وحين نظرت للوراء ؛ رأيت الجاثوم يعدو تجاهى !

كيف نجا ؟ بالتأكيد بنفس الكيفية التى غادرت أنا بها الكهف .. وهو على بعد خمسين مترًا منى ..

أنا أعدو .. وهو يعدو ....

من الغريب أن سرعته كانت بطيئة جدًا تتناسب مع حجمه .. لكنه كان يقطع مسافات لا قبل لى بها .. والفجوة بيننا تضيق .. وتضيق ..

.. زدت السرعة أكثر فـ ـ

(ألا يوجد فلاحون هنا ؟)

ـ زاد السرعة أكثر ..

وهنا تعثرت فهويت منكفئًا على وجهى بين عيدان القمح ..

وعرفت أن هناك ما أمسك كاحلى .. مما جعلنى أتعثر ...

ونظرت لأرى ما هو؟ فوجدتها يدًا .. يدًا مشعرة مخلبية كانت قابعة بانتظارى بين السوق ، كى تعرقلنى ...

إنها يد الجاثوم .. وهى تحاول تعطيلى إلى أن يلحق بى صاحبها ..

مستحيل أن أنتظر .. لا !

بِمَ تتشبث هذه اليد المبتورة كى تقبض على كاحلى كفخ لصيد الدببة ؟



بِمَ تتشبث هذه اليد المبتورة كى تقبض على كاحلى كفخ لصيد الدببة ؟

إنها لا تملك ما تمسك به ؟

لكنها عنيدة حقًا .. ثابتة فى الأرض حقًا .. متى خرجت من كيسها ؟ ولماذا جاءت إلى الحلم ؟

لا وقت للتساؤل لأن ..

لا ا ا ا ا ا ا ا ا ه !

* * *

ا ا ا ا ا ا ه !

وكان أول ما فعلته حين صحوت من الكابوس هو أن كشفت الغطاء كى أرى كاحلى .. لم تكن اليد هناك ..

وثبت إلى حقيبتى فى الظلام ، فاصطدم إصبعى بشىء خشبى كاد معه الألم يفقدنى صوابى ... وحين أضأت النور الكهربى وجدت أن اللفافة التى تحوى اليد ليست ها هنا ...

إذن .. كان الشىء معى داخل الكابوس ، ونسيته هناك .. لابد أنه تخلى عن كاحلى فى لحظة الانتقال ...

عدت لإغلاق النور ، وفى الظلام رحت أتأمل موقفى ..

للمرة الأولى يخرج حلمى إلى الشمس والنور .. وإن لم يك أقل إرعابًا مما كان فى الظلام ..

من المفهوم أننى قد فررت من القصر إياه - بطريقة ما - ورحت أركض فى الحقول بينما الشىء ورائى ..

ماذا سيحدث غدًا ؟ لا أدرى حقًا .. إن أسلوب التسويق إلى الحلقة القادمة هذا يثير أعصابى .. ذلك الأسلوب الذى يدعوه صناع الدراما بأسلوب (التعلق بالحافة) أو Cliff-hanger..

ودخلت إلى الحمام الصغير الملحق بالحجرة .. كانت هناك مرآة تآكل طلاؤها البراق بفعل الزمن تعلو الحوض ..

غسلت وجهى وتأملت انعكاسه فى اهتمام ...

نعم هذا حق .. لقد زحف الشيب على خصلات كثيرة من شعرى الذى كان فاحمًا .. لقد أحرق الهول سواد رأسى إن صح تعبير بلاغى كهذا ..

والجديد هنا هو أننى فقدت الأثر الوحيد الذى يؤكد لى أننى لا أهذى ..

* * *

ابتعت كتاب (تفسير الأحلام) من إحدى دور كتب التراث ، وفى الكافتريا إياها رحت أرشف عصير الليمون البارد ، وأقرأ هذا العمل المرهق الذى أخرجه (ابن سيرين) .. وقد سرنى أنه أقرب إلى معجم تبحث فيه عن ضالتك ، فلا تضطر لقراءة كتاب كامل حافل بـ (العصابات) و (النكوصات) و (الكبت) كما هو الحال مع (فرويد) ..

وقد وجدت التالى :

• من رأى أن الشيطان يتبعه فإن له عدوًا يخدعه ويغريه وينقص من عمله .

• دخول القلعة يدلّ على الرزق والنسك فى الدين .

ثم عشرات التفسيرات لكل جزء من الحلم يستحيل أن تتسق لتكون تفسيرًا واحدًا متجانسًا .. إن الأمر أعسر مما ظننت ..

إننى أعرف جيدًا أن ما أمر به هو عرض فريد لا يمكن أن أجد له جوابًا فى أى كتاب ..

كان هذا حين وصلت (إيناس) ، فأخفيت الكتاب بين طيات جريدة أحملها فأنا لا أريد أسئلة فضولية ترهقنى بها ..

* * *

خمسة أيام مضت على تعرفى (إيناس) ...

وفى كل مرة كنت أشعر أكثر أننى لا أجرؤ على التفكير فى الحياة بدونها .. وبعد عشرة أيام سيكون الفراق محتومًا .. عندئذ سأتذكر قول الشاعر العربى :

عجبت حين تركتها كيف لم أمتْ ..

وكيف انثنت بعد الفراق يدى معى !

عجبًا لى ! إننى رجل متزوج ناضج لكننى أفكر كالمراهقين ..

لكننى أستطيع القول إن سر تعلقى بها هو حاجتى إلى صديق .. وقد كانت (إيناس) صديقًا طيبًا ذكيًا .. صحيح أنه صديق طويل الشعر ويلبس الحذاء ذا الكعب ويضع عطر (الفام شيك) .. لكنه لا يزيد على صديق أعتزّ بصداقته ..

قالت لى صديقتى (إيناس) بلهجة من يقرر أمرًا منتهيًا :

- « إن (مها) تدعونا إلى رحلة ريفية غدًا .. »

- « (مها) ؟ »

- « نعم .. صديقة تعمل بالتدريس معى .. وهى تدعونا إلى يوم كامل فى العزبة التى تملكها الأسرة جوار الإسكندرية .. »

قلت لها فى سأم وأنا أستدعى النادل بإشارة من يدى :

ـ « وما دخلى بهذا ؟ إنها تدعو صديقاتها .. وأنا ليس لى صفه رسمية من أى نوع .. »

ضحكت ضحكتها الهادئة التى تعلن أن ما تقوله ليس هراء .. وقالت :

ـ « لا أحد يحدد لى أو لك صفتك الرسمية أو عدمها .. أنت إنسان مهذب محترم يهمنى أمره .. لهذا دعوتك .. وهى لن ترفض .. ثم إنك لن تكون الرجل الوحيد .. هناك ثلاثة مدرسين آخرين مما يجعل الرحلة ذات طابع رسمى تربوى لا بأس به .. »

تنهدت وقلت لها :

ـ « لا بأس .. سأقبل لأننى لا أعرف شيئًا آخر أفعله .. ولا أريد أن أفتقدك يومًا كاملاً .. »

نظرة تحذير فى عينيها :

ـ « هأنتذا تحاول أن تلعب دور المغازل .. لقد أنذرتك ! »

تداركت نفسى على الفور :

ـ لا .. إنها مُجاملة لا أكثر ولا أقل .. مُجاملة .. »

★ ★ ★

وفى سيارة الأجرة التى تحركت بالمجموعة ؛ أمكننى أن أحدد أنماط الموجودين دون عناء .. وهم جميعًا ـ كالعادة ـ أغبياء باستثناء (إيناس) التى تملك وجه فتاة وعقل رجل وقلب شيخ ..

إلى جوار السائق جلست أنا وشاب متظرف يدعى (محيى) ، لا يكف عن إلقاء الدعابات السخيفة التى يضحك منها أكثر من الآخرين ، كأنه يسمعها للمرة الأولى .. وهو خطيب الفتاة التى تجلس ورائى .. واسمها (غادة) .. وهى جديرة به حقًا ..

يوجد زوجان : موجه بالتربية والتعليم يدعى (سيد الشمندورى) ومعه زوجته الحامل فى شهرها السابع وهى مدرسة تدعى (هويدا عبد المنعم) !

ملحوظة : د. (رفعت) :

أخيرًا خبر عن (هويدا) ! حسبتها ماتت أو هاجرت .. يبدو أنها اندمجت تمامًا فى عالمها الجديد بعد عام من الزواج .. آمل ألا يعرف (هـ) هذا أنها كانت خطيبتى يومًا ...

من ضمن الركاب أيضًا (مها) ـ صاحبة الدعوة ـ وهى حسناء فى التاسعة والعشرين من عمرها ، ومعها

خطيبها (عبد الرحيم) .. ويمكن القول إنهما أكثر الموجودين قابلية للاستلطاف .. ويمكن ابتلاعها دون جهد كثير ..

المزروعات تتسابق على جانبى السيارة ونحن نقصد ذلك المكان الذى سنقضى فيه يومنا .. مجموعة متعارفة متجانسة فيما عداى أنا .. لهذا لم يوجه لى أحد كلمة طيلة الطريق .. وسمعت بضع همسات عن شخصى ومن يكون بالضبط ..

أراهن على أنه سيكون (أطول يوم فى التاريخ) مع كل هذا الملل ...

والحق أنه كان كذلك ..

ولكن لأسباب أخرى ليس الملل من بينها !

* * *

٩ - عزبة ما ..

لن أذكر لك اسم العزبة .. لكنها قريبة من (أبو حمص) إلى حد كبير .. ولقد وصلنا هناك عند الظهر .. فترجلنا ..

شرعت (مها) تقودنا إلى دار أبيها ، وهى تثرثر دون انقطاع عن كل شىء .. منذ جاء أبوها إلى هذا المكان وابتاع عددًا متزايدًا من الفدادين .. وراح ينميها بجهده وعرقه ..

طبعًا لم يفتها أن تهاجم التأميم الذى قلّص ثروتهم إلى حد مروّع .. وكيف انكمشت ممتلكات الأسرة إلى هذه العزبة الصغيرة ، وما حولها من فدادين لا تكاد تكفى لأعباء الحياة ، خاصة أن مال الأرض هو مال مجمد لا يمكن الاستفادة منه إلا بعد عناء ..

تدخل أحد المدافعين عن الثورة وراح يناقشها - فى كثير من الحدة - حول حق أبيها فى أرضه هذه ، وعن الاشتراكية .. و .. و ...

لكنى كنت شاردًا فى خواطرى الخاصة ..

إن حقل القمح الذى نمرّ بجواره هذا يبدو مألوفًا .. حقل كأنما رسمته ريشة (فان جوخ) منذ دقائق ..

* * *

وسمعت صوت (إيناس) تصيح فى انبهار :

- « (مها) ! لم أدر قط أنكم بهذا الثراء .. »

كانت تشير إلى دار الأسرة .. لا لم تكن هذه دارًا تلك الواقفة أمامنا فى فخر تستمتع بضوء الشمس الشتوية ..

كانت قصرًا ..

قصرًا فخمًا من طابقين تم بناؤه باستمتاع وحبّ ، بأيدى بنائى الماضى الذين عشقوا عملهم واتقوا ربهم ، فجاء قطعة من الفن الرفيع .. خليقة بأن تكون قصرًا لأحد بارونات النمسا أو سادة انجلترا الإقطاعيين ..

شهقات الانبهار تتصاعد من الصدور .. وثمة شعور عام غمرنا بأن (مها) تملك بالتأكيد ما هو أكثر من (ما يكفى لأعباء الحياة) .. إن هذه الفتاة تتصنع الفقر كما هو واضح ..

ومع هذا الشعور ما زجنا شعور عدائى انتصرنا عليه سريعًا .. إذا لم يحجّم التأميم أملاك هذه الأسرة فماذا يحجّم إذن ؟!

أما أنا فكنت فى أسوأ حال من الحيرة والتشتت ..

هذا القصر .. هذا القصر اللعين ..

أكاد أقسم إنه هو !

* * *

كانت ركبتاى موشكتين على التخاذل .. والعرق البارد يبلل موضع شاربى . مع ميل للغثيان غير هين ..

الحق أننى شعرت لهنيهة بقرب الإغماء ..

ثم تمالكت نفسى ووقفت كرجل أصافح والد (مها) .. رجل ضخم الجثة كثّ الشارب أشيبه .. فيه ذلك الاعتداد التركى بالنفس - وأنا أمقت المعتدين بأنفسهم كما قلت - حتى توقعت أن يصيح فجأة فينا (أوغلى كلاب) ! ثم يجلدنا بالسوط ويربطنا إلى جذوع النخيل ..

رجل كهذا - حتمًا - لم يصنع ثروته بالعرق .. بل هو من هؤلاء المحظوظين الذين وهبهم الحظ هديته العظمى : الميراث ... إن (مها) تخدعنا على

الأرجح .. تحاول أن تجمع إلى ثراء أسرتها نبل المحتد والعصامية ـ وهى صفة مستحبة بعد الثورة ـ والعلم .. وإلا فلماذا تصرّ على أن تكون مدرسة ؟

دعنا من هذه الخواطر إذن وتعال معى ندخل القصر ..

درجات السلم ثم الباب الخشبى العملاق الذى ينفتح دون صرير .. برغم أنك تتوقع ذلك ...

هل يذكرك هذا بشىء ما ؟!

* * *

رواق طويل نمشى فيه مع الثرى الريفى ..

نظرات تجمع الانبهار بالحسد فى العيون ..

و (إيناس) تهمس فى أذنى :

ـ « كأننا فى أحد أفلام (فاتن حمامة) القديمة .. لن أندهش كثيرًا لو رأيت (عماد حمدى) خارجًا من أحد الأبواب .. »

ـ « وأنا كذلك .. أخشى أن يستحيل المشهد (أبيض وأسود) فى أية ثانية ! »

ومن جديد ينبض فؤادى فى هلع ..

الشمعدان الفضى .. الستار الأحمر سليم غير

ممزق .. لكنه هو ولوحة جدارية مقبرة عليها فارس يغرس رمحه فى قلب أسد ..

ثم ذلك الرواق الطويل .. فى نهايته الحجرة .. الحجرة التى دعوت الله ألا تكون هناك ....

هل هذا كابوس آخر أعيشه ؟

ربما أصحو الآن لأجد نفسى فى الفراش .. وعندها تكون هذه الرحلة أكذوبة لا أكثر من نسج خيالى ...

من يدرى ؟ ربما (إيناس) نفسها أكذوبة .. جزء من حلم كبير أراه وأنا فى فراشى بالقاهرة بعد عشاء دسم ..

من يدرى ؟ ربما حياتى كلها حلم .. حلم يراه طفل يغفو على صدر أمه بعد رضعة دافئة ...

إن من الأحلام ما يبدو أكثر واقعية من الواقع ذاته .. وليست كلها متجلية من النوع الذى يعرف معه الحالم أنه يحلم ...

ولكن .. كيف أتأكد ؟ أنا أشعر بكل شىء وأسمع كل شىء ..

أملك الإحساس بأطرافى ورأسى ..

حتى حين لدغتَ ساعدى بعنف شعرت بالألم يحرق أعصابى ..

هذا حق ..

بالتأكيد هو حق ...

* * *

جلسوا فى الصالون الكبير ـ طراز (لويس السادس عشر) ـ يتناولون الشاى والمرطبات .. وقال الأب وهو يتوكأ على عصاه ذات المقبض الأبنوسى المنحوت على شكل رأس أسد :

ـ « ستكونون ضيوفنا لمدة نصف ساعة .. بعدها أنتم أحرار .. لن نثقل عليكم بصحبتنا .. تنقلوا فى البيت كما ترومون .. وافعلوا ما تبغون فى العزبة .. »

ثم أشار إلى ابنته (مها) التى كانت تموت فخرًا .. وأردف :

ـ « إن (مها) ستريكم كل شىء .. يمكن لمن يرغب أن يصطاد السمك من الترعة .. أو يستمتع بركوب الخيل .. وعندما تجىء الرابعة عصرًا سأنتظركم فى القاعة لتتناولوا غداءً أعددته لكم .. وهو معبر بدقة عن الكرم (البحراوى) .. »

كانت هذه هى الكلمة النهائية من (الزعيم) ..

فنهضنا شاكرين كرمه .. وغادرنا المكان ..

لم أستطع أن أحب هذا الرجل برغم لطفه .. برغم تطفلى المخجل على داره .. فقد دعتنى (إيناس) لأن (مها) ـ التى لم ترنى قط ـ قد دعتها .. ولو كنت إنسانًا ذا شعور تقليدى لانتحرت خجلا ..

تفرق القوم فى أرجاء القصر ، وراحوا يتفقدون كل شىء .. لابد أن (لجنة المصادرة) الثورية لم تفعل ما فعلوه بتحف هذا القصر ، حين جاءت هنا منذ أكثر من عشرة أعوام ..

بوقاحة يتأملون ويقلبون كل شىء .. بل تجاسر أحدهم ـ زوج (هويدا) هذه ـ وزحف تحت إحدى الموائد ليدرس تكوينها ، كأنما هو ميكانيكى يفحص سيارة ..

كنت أصبو إلى الانفراد ..

والانفراد هو ما قمت به ...

* * *

بخطى ثابتة مشيت إلى الباب الموصد فى نهاية الممر ..

بحثت فى جيبى حتى وجدته .. فهو لم يفارقنى يومًا ...

كان ما أريد هو مفتاح غريب الشكل يمتلئ بتلك الزخارف .. حين كان الناس يملكون الوقت والبال الرائق لعمل منمنمات كهذه ..

ونظرت للوراء فى حذر .. ثم أولجت المفتاح فى ثقبه ..

إنه يدور ! عنيد ثقيل لكنه يستجيب ..

كما فى ذلك الكابوس تمامًا ...

فماذا سأجده فى هذه الحجرة إذن ؟!

....

★ ★ ★



ونظرت للوراء فى حذر .. ثم أولجت المفتاح فى ثقبه .. إنه يدور ! عنيد ثقيل لكنه يستجيب ..

١٠ - أين أنا ؟

ظلام دامس بالداخل ..

لكنى كنت أذكر أن الكابوس بدأ بالظلام كذلك ، ثم إن الظلام انقشع واستطعت أن أرى الشىء بانتظارى ..

وقفت فى الظلام أنتظر أن يحدث الشىء ذاته ، كان ذلك حين سمعت صوت جلبة ..

فهرعت إلى خارج الحجرة ، وأولجت المفتاح فى القفل كى أغلقها .. فأنا على كل حال لم أكن راغبًا فى أن أحبس نفسى بداخلها ..

هنا سمعت صوت (إيناس) تقول :

- أين ذهبت ؟ إننا نتفقد المكان بكل حقد المطحونين ! »

ارتبكتُ .. ولم أجد ما يكفى من الوقت إلا لأدسّ المفتاح فى جيبى ، ثم ألتفت إليها مبهور الأنفاس وأنا أسند ظهرى إلى الباب ..

قالت لى فى دهشة :

- « ماذا دهاك ؟ تبدو موشكًا على فقدان الوعى .. »

- « هذا صحيح .. إنه الجو الخانق كما تعلمين »

قالت مشيرة إلى الجمع الواقف فى المدخل :

- « إذن تعال .. لا تبق هنا .. إننا ذاهبون لنرى هذه العزبة .. هل تحسن صيد السمك أو ركوب الخيل ؟ »

- « إننى أفعل كل شىء فى الأحلام .. أما فى الواقع فلم أجرب بعد .. »

- إذن .. هلم .. »

إن هذه الحمقاء - وهذا واضح - لا تزمع أن تتركنى وشأنى ثانية واحدة .. فلن تسمح لى بتفقد الغرفة خلسة ..

ولن تسمح لى - وتلك مصيبة - بإعادة غلقها ..

أشعر أن شرًا مستطيرًا يكمن فى هذه الغرفة .. ومن الخبال أن أفتح بابها ثم لا أغلقه بإحكام بعد ذلك ..

ولكن .. كيف تفعل ذلك ؟ كيف تفسر ؟

* * *

فى الخارج ؛ حيث غمرت شمس الشتاء البهيجة

المكان .. فبدت كقبلة الكون على جبين الطبيعة المدللة ..

شمس الشتاء التى تتخلل العظام حتى النخاع فتذيب الجليد .. وتشع الحرارة من ثيابك كفراء هريرة ناعسة ...

(سيد الشمندورى) يركب حمارًا طفلًا وقد بدا عليه الفخار والسرور .. بينما امرأته (هويدا) تهرول إلى جواره ، وهى تمسك ببطنها المنتفخ حافية القدمين ، تطلق ضحكة بلهاء تلو ضحكة بلهاء ..

وإلى جوارهما يركض فلاح صغير السن والحجم ، يضرب كفل الحمار ضربًا رفيقًا بعصاه ، ويتساءل عن شأن هؤلاء الحمقى القادمين من (الإسكندرية) كى يركبوا حمارًا ..

أما (مها) وخطيبها (عبد الرحيم) فراحا يحاولان (تسلق) ظهر حصان أبيض بارع الجمال .. وكعادة الرجال يتظاهر (عبد الرحيم) بأنه فارس أبًا عن جد .. وأنه ولد ومن تحته حصان مطهم ..

يجىء دور (محيى) و (غادة) اللذين ذهبا إلى الماء ليطعما الأسماك ، ولتطلق الفتاة صرخات الذعر

الهستيرية كلما أمسكت دودة بين أناملها لتضعها فى الشص .. وهو شىء يتكرر كل خمس دقائق ..

أما أنا و (إيناس) فسرنا الهوينى جوار شط الترعة ، صامتين كالأسماك نتأمل الطحالب الخضراء العائمة فوق المياه .. ونرنو إلى فقاقيع الماء القادمة من القاع .. ألأسماك هى أم لضفادع ؟

لا أدرى حقًا .. لكنى لم أحبَّ كثيرًا نظرات الفلاحين الفضولية ـ والساخرة قليلاً ـ إلينا ..

بعد هنيهة قلت لـ (إيناس) دون أن أنظر إليها :

ـ « لقد رأيت هذا المكان من قبل .. »

قذفت هى بحجر فى الماء ، وراحت ترمق الدوّامة المتسعة من حوله ، ثم تنهدت ولم ترد ..

قلت لها مؤكدًا :

ـ « ليس الأمر كما تظنين .. هذا القصر محفور فى داخلى .. »

ابتسمت وقالت دون حماس :

ـ « هذا يحدث .. »

ـ « إنه يزور أحلامى بكل تفاصيله .. »

قالت وهى تقذف حجرًا آخر :

ـ « إنها ظاهرة (ديجا ـ فو) الشهيرة .. »

ـ « (ديجا) ماذا ؟ »

ـ « (ديجا ـ فو) .. ألا تعرف الفرنسية ؟ (شوهد من قبل) .. حين ترى إنسانًا فتحسب أنك رأيته من قبل وأنت لم تره قط .. أو تزور مكانًا يملؤك اليقين أنك زرته برغم كونك لم تزره قط .. »

ـ « إنك واسعة العلم .. وماذا تعنى هذه الظاهرة ؟ »

مطت شفتيها فى استهتار وقالت :

ـ « لا شىء .. يقولون إن الدم يتأخر فى الوصول إلى فصك الصدغى الأيمن .. وعندما يصل إليه يكون ما يراه هو ذكرى بالنسبة إلى الفص الصدغى الأيسر .. إن التفسير معقد .. لكننى فهمت منه هذا الذى أقوله لك .. »

ـ « تعنين أننى لم أر هذه العزبة قط ؟ »

ـ « حتمًا .. إنها دعابة فسيولوجية ثقيلة .. ولكن الناس يرفضون هذا التفسير المحبط .. لأن كل إنسان يحبّ أن يجد فى نفسه نوعًا من شفافية الأولياء .. »

ـ أنا أرفض هذا التفسير لحالتى ..

أنا بالتأكيد رأيت هذا المكان مرارًا ..

ثم إننى أملك دليلاً ماديًا لا يناقش .. بل عشرات الأدلة التى وجدتها فى فراشى فى كل ليلة سوداء صحوت فيها من كابوس ..

ولكن ما معنى هذا كله ؟

ـ « أنت تجيد الركوب حقًا يا (سيدو) ! »

كان هذا هو صوت (هويدا) التى تركض بجنيها جوار الحمار ، وتدلل زوجها البدين بهذا الاسم .. ما هى الإجادة فى ركوب حمار رضيع ارتفاعه عن الأرض أقل من متر ؟

كيف وجدت هذه الفتاة من يتزوجها ؟ وبأية معجزة ؟!

★ ★ ★

كان الغداء حافلاً بحق ..

إن كتب تاريخ الحمام والبط والأوز ستخلد هذا اليوم ، باعتباره يوم المذبحة .. كما نخلد نحن تاريخ قنبلة (هيروشيما)(*)

ولما كنت أنا محرومًا من طعام البيت منذ فترة كأنها دهر ؛ فقد قاتلت كالأبطال فى حومة الوغى ..

(*) ٦ أغسطس عام ١٩٤٥ .. بالمناسبة لا أكثر !

وجاء وقت انتهاء هذا المهشد الجهنمى ، وكنا جالسين على الأرض حول الأطباق وآنية الطعام فى القاعة الكبرى ..

فلما فرغنا من احتساء الشاى جاء خادم ريفى يدعونا إلى غسيل الأيدى ..

وتزاحمنا صفا أمام الحمام كل ينتظر دوره ، وقد أبعد يديه الملوثتين عن خصره ، وراح يلوك بقايا الطعام الشهى التى علقت بأسنانه .

ثمة شعور بالرضا عن الحياة يغمر الجميع ..

وكانت هذه هى فرصتى ..

تراجعت إلى الوراء قليلا .. وفى خفة الحملان ـ الحملان البدينة طبعًا ـ مشيت إلى المدخل .. ولم يكن هناك من يرانى ..

إن ما أريده هو الباب ..

الباب الخشبى الذى لم أجد الوقت كى أوصده بالمفتاح ..

لكنى ـ حين وقفت أمامه ـ أيقنت أننى تأخرت بعض الشىء ..

لقد كان الباب مواربًا ..

* * *

بلمحة من عينى رأيت الرواق المظلم إلى اليمين ..

الرواق الذى كنت أعرف جيدًا أنه مسدود .. وأن مشاعل منطفئة كثيرة معلقة على جداره الذى ازدان بالطحلب والعفن .. كل هذا لم أره .. لكننى أيقنت بوجوده ..

هل أفعل ؟

لمَ لا ..؟

ومن جيبى أخرجت قداحة ، وأشعلتها ..

نعم .. هذا حق .. إن الممر يمتد لمسافة ثلاثين مترًا ثم ينتهى بجدار .. وجانبا الممر مغطيان بالعفن والطحالب ..

أما الأكثر إثارة فهو أن كوة صغيرة مستديرة توجد فى نهايته ..

إن هذا مثير ..

مثير إلى درجة الرعب ..

* * *

مشيت إلى نهاية الممر ..

كان الفضول يقتلنى ..

وبيد مرتجفة أخرجت ـ

(هل هناك من يتحرك ورائى ؟)

ـ قداحتى .. وأدخلت يدى بها فى الكوة ..

حاولت أن أتبين شيئا ..

لكنى على الأقل لمحت المنحدر الوعر الذى يقود إلى أسفل ..

ولم أستطع أن أقاوم أكثر .. لم يكن هناك من يرانى وبالتأكيد لن يفتقدنى أحد .. لماذا لا أكرر الحلم بحذافيره إذن ؟

اجتزت الكوة بصعوبة ـ إننى أقل بدانة فى الحلم ـ ورحت أتدحرج فوق المنحدر ، محاولاً ألا أفقد توازنى ..

وفى النهاية وجدت أننى أقف فى القبو ـ ذات القبو ـ المربع الذى قابلت فيه (النكرومانسر) فى الكابوس ..

لم يكن هناك (نكرومانسر) ...

ولم يكن هناك ما يدل على أن طقوسًا تمارس فى هذا المكان .. هذا متوقع .. فأمور كهذه هى من صميم عمل الكوابيس ولا مجال لها هنا .. كفانى بالمكان رعبًا ..

أزمعت العودة .. ويعلم الله وحده كيف سأتمكن من تسلق هذا المنحدر ومغادرة المكان ..

هنا اصطدمت ساقى بشىء معدنى ..

ولم أحتج لأن انحنى كى أعرف ما هو ..

إن ضوء القداحة كاف جدًا لأرى القدر المقلوب على جانبه ، والذى كان (النكرومانسر) يمارس فيه شيئا ما فى الكابوس ...

أنا من قلب هذا القدر ...

ومعنى هذا أننى كنت هنا حقًا ....

* * *

خاتمة الجزء الأول

مازلت إذن مع خطاب (هـ) الذى يستطرد قائلاً :

ـ كانت الحيرة تغمرنى يا د. (رفعت) .. وصرت عاجزًا تمامًا عن تمييز الحلم من الحقيقة ..

تسلقت المنحدر بصعوبة بالغة .. وحشرت جسدى فى الكوة .. لكن نصفى السفلى ظل فى القبو لأن أردافى ممتلئة إلى حد ما بفعل كثرة الجلوس ..

كان لابد من أن أجذب أكثر وأحرك جسدى يمينًا ويسارًا كسدادة زجاجة من فللين تحاول انتزاعها ..

وهنا شعرت ـ ولك أن تدرك مدى هلعى ـ بمن يحاول جذبى إلى القبو ثانية !

قبضتان قويتان أطبقتا على كاحلىَّ ، مع جذب إلى الوراء دون هوادة .. أصدرت أنة وفتحت ذراعىَّ عن آخرهما لتعملا كحاجز يمنع جسدى من المرور ..

ثم تحررت قدمى اليمنى .. وهى غلطة شنعاء ممن يمسك بى لأننى أتميز بقدرة لا بأس بها على الركل ...

وكانت الركلة قوية حقًا ، من كيان إنسان لا يمقت شيئًا فى العالم سوى أن يرى وجه الممسك به ..

عندها تخلت اليد اليسرى عن الكاحل الأيسر ..

وبأقصى ما استطعت قذفت نفسى خارجًا من الكوة ..

وعبرت حقًا فى هذه المرة ...

والآن هأنذا أتكوم فى الظلام عند طرف الرواق أسفل الكوة .. أرتجف .. وأتساءل : هل حقًا مررت بما مررت به ؟

ونهضت عائدًا إلى الباقين .. الصحبة الآدمية ...

★ ★ ★

وفى شرفة الدار وقفت أرمق الحقول الممتدة أمامى .. الحقول التى رسمتها فرشاة (فان جوخ) منذ ثوان ...

وتساءلت ..

أنا لا أومن بتناسخ الأرواح .. فمن المستحيل أن أكون قد عشت فى هذا القصر من قبل كأمير أو باشا قديم ..

أتكون هى عادة الجوال الليلى أو المشى فى أثناء النوم ؟ أحتاج إلى قدر غير عادى من الحماسة كى

أغادر فراشى فى القاهرة وأركب إلى (أبوحمص) ، ثم استقل مواصلة أخرى إلى هذه العزبة ، لأجول فى أقبية هذا القصر وأواجه ما به من مسوخ ..

لو كان هذا صحيحًا لاحتجت إلى ثمانى ساعات كل ليلة فى هذا السفر المرهق ..

أم أننى عشت فى هذا القصر يومًا ما فى زمن سحيق ، ونسيت كل شىء عن هذا ؟

ومن هو هذا الجاثوم ؟ ولماذا لا ألقاه إلا فى آخر الليل ؟

ومن الذى فتح باب الحجرة التى لم أحسن غلقها بالمفتاح ؟

أيكون هو الجاثوم وقد حررته بحماقتى ؟

وما هو لغز (مها) وأبيها ؟ ولماذا قصرهما بالذات ؟

★ ★ ★

هل تملك إجابات يا د. (رفعت) ؟

بالطبع لا .. لأنك تجهل كل شىء عن دنيا ما وراء الطبيعة .. فقط لم تكف عن الثرثرة يومًا عن مصاصى دمائك ومذءوبيك وكهنتك الحانقين طيلة الوقت .. لكنك لا تصلح لحل المشاكل أبدًا ..

فى الصفحات القادمة أدعوك أيها الساذج إلى خبرة جديدة لم تخضها قط .. أنا خضتها بدلاً منك ..
وعندها عرفت إجابات أسئلة لم تخطر ببالى قط .

[تم الجزء الأول]

★ ★ ★

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس

من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة آخر الليل

اليوم نقدم لكم موضوعًا مسليًا إلى حدٍّ ما : الكوابيس التي تترك في فراشك أثرًا ماديًا مؤكدًا .. مشعلاً - على سبيل المثال - أو مفتاحًا أو يدًا مبتورة ! وهذه الظاهرة لا تحدث إلا آخر الليل حين يظل النهار بمنأى عنك .. لكنك تتعلق بالأمل في أن يجيء سريعًا !



د. أحمد خالد توفيق

الثمن في مصر

وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم

الناشر

المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم :

أسطورة الجاثوم